أشجارٌ عاريةٌ

طارق لحمادي

أشجارٌ عاريةٌ

قصص قصيرة

دار الماهر للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان	أشجار عارية
المؤلف	طارق لحمادي
حجم الكتاب	14/ 20
عدد الصفحات	143
سنة النشر	2018
الناشر	دار الماهر
رقم الإيداع القانوني	2018-10
ر د م ك	978-9931-692-70-6

الآراء والأفكار التي يتضمنها هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

الطبعة الأولى

كل الحقوق محفوظة لدار الماهر

للطباعة والنشر والتوزيع

dar.elmaher

dar.elmaher@outlook.fr

00213.771.49.03.01

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك دون إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى البسطاء..
إليهم أرفع هذا الكتاب..

الظّلام

مسّ الأرض بعصاه، فارتدّ الإحساس إلى يده ثم إلى وجهه، امتعض وبدا كأنّ أسئلة كثيرة قد علقت بعينيه المطفأتين..

- تفووه أولاد كلب ...

بصق في الرّيح، والأصوات جاءته مثقلة بحرارة الحياة، صخب الباعة، وأبواق السيارات، ودقّات الأقدام، وكلمات متقطّعة متداخلة منفعلة. لا أحد يأبه، ولا من يسأل، والأرض بعجزها تحت لمسة عصاه، بإحساسه حدّد موقفه، ودرس موقعه، وعرف.

هو الآن على الرّصيف، والطّريق مستلقية أمامه، هو لا يعرف شكلها، ولا طولها، ولا لونها، هو فقط يعرف أنها مجالٌ مفتوحٌ يمكّنه من العبور ومن الوصول، والطّريق لا تقول له أكثر من أنّها عامرة بالحياة، مملوءة بالسيارات، والناس، والأصوات..

رفع عصاه قليلا عن وجه الأرض، فتح بين نهايتها المكوّرة والأرض فرجة، حرّكها في الهواء، بدا له حينها إحساس بالفراغ، وتسرّب إليه صوت مباغت:

- اعبرْ...

أهمل الصوت، وأهمل صاحبه، وبقي.. أعاد عصاه إلى الأرض، مسّها بكل روية، ثم دفعها قليلا نحو الأمام، فتعثّرت.. عقبة ما، وارتد إلى يده، ثم إلى قلبه.. كأنه الشك، وفي عينيه اليقين، لكنه بلا بصر..

تشكّل طابور من السيارات، وعلا صوت أبواقها، وأكثر من سائق مدّ رأسه من وراء زجاج نافذة سيارته:

- امشِ ...

لعنات، سباب، ضوضاء، وتذمّر:

- الله يلعنك يا أخي هو أصلا مش ماشي ...

قرقع قفل باب سيارة، تشنّجت أعصاب، ضاقت صدور، لمعت أعينٌ، وتفصدت جباه بالعرق والقلق...

- اصبر شوية .. ما تقدرش تصبر؟!...

كبر الطابور، زادت أبواق السيارات حدّة، علا الصراخ، وصافرات الإنذار، تجمهر الناس، بدأوا قلّة، ثم راحوا يتزايدون، ولا بد أن تفد الشرطة، صوت زجاج يتهشّم، لكمات، ركلات، وقوع أجساد على الأرض، رائحة دم ساخن، وأقوال فاحشة تتطاير في سماء السمع كالشرر.

هو لا يرى، فتتعثّر باقي حواسه للمعرفة.

* * *

غير بعيد تثقل الأصوات، يُشحَنُ الجو بنار التوتر...

- يا بن الكلب... ما تقدرش تصبر؟...

لا شيء غير الظّلام والأصوات والرّوائح، عصاي تتحسّس الأرض من جديد، ليس بالإمكان أن أدرك أنّ الطّريق سالكة أمامي، أحاول جاهدًا أن أرى الأصوات والرّوائح المتداخلة، أحاول أن أعزلها من الظلمة، وأشكّل منها ما يمكن لي أن أراه، أحرّك العصا من جديد، تمسّ الهواء، تمسّ الفراغ الكامل بعد أن رفعتها عن وجه الأرض، وحين أدفعها قليلا إلى الأمام أتلمّس بقلبي ذات العائق.. لا أعرف.. لا أعرف إن كان حجرًا، يبدو قاسيًا صلبًا، يبدو لي ذلك من قرع نهاية العصا به... أقرعه من جديد لأتبيّن وجه الحقيقة فيه، هو لا يقول أكثر من كونه عائقًا، شيئًا ما، مادة ما، صلبة، قاسية، هادئة، نائمة في طريقي...

فليكن حجرًا إذن...

* * *

تقلّصت عضلات وجهه، وارتفع حاجبه الأيسر قليلا، وقطّب جبينه كأنما يلتقطُ الأصوات بجفنيه، شدّت يده المعروقة الخشنة

عـلى العصـا، فوّضهـا كل سـلطته، جعلهـا بـصره الحـاد، وسـمعه المرهـف، حـرّك يـده اليـسرى في الهـواء، دفعهـا ككشّـاف نـور في عتمـة العـدم..

لم يكن ثمة شيء...

لا خوف...

فالجلبـة واقعـة في مسـاحة تضمـن أمنـه، وهـي بعيـدة عنـه بـما يلهمـه السـمع والشـم، ويحفـظ لـه وقوفـه مـن غـير أذى..

زاد اللغـط، وتناوبـت أبـواق السّـيارات في نـواح طويـل، هـدرت المحـرّكات بـلا رحمـة، ولم تنتـه المعركـة بعـد، لم تخـب نارهـا، ولا كفّت اللعنـات والشـتائم، وهـو كأنـما كان يتفـرّج عـلى كلّ شيء، بعينـين مطفأتـين يـرى، يحـدّق، يتابـع كل مـا يجـري حولـه، لم يفكّـر في أن يتقـدّم مكمـلاً طريقـه، ولا أن يعـود أدراجـه، ولا أن يتزحـزح، وقـف بشـموخ التماثيـل.. الكاشبوسـيار الرّمـادي الطويـل، سروال القطيفـة البنّـي المثنـي عنـد أسـفل سـاقيه، الحـذاء الـرّث الباهـت المغـبّر، قلقـه المشـتعل، خسـارات الضـوء، حصـار العتمـة، العصـا، وفحيـح روحـه الـذي يخـرج كلـمات تبـدّت في جلبـة الضجيـج كالهمـس:

- الله يلعنكم واش صار؟!...

* * *

لم يجبني أحد، لم ألتقط صوتًا يفيد روحي أو يضعني في قلب حقيقة ما يجري، وحدي كنتُ أتعثّر في ظلمتي، أرزح في انكساري الكامل، تصلني الأصوات، تشتعل صافرات إنذار.. جائعة تعوي، عدوى السباب التي راحت تفرّخ وتعلو، رائحة دماء ساخنة.. هذا اليقين، هذا الذي يحدث، لكن الذي لا أعرفه هو كيف حدث؟.. ولماذا؟.. ولِمَ لم تخلُ الطريق؟.. وكيف دبّ الجدب حولي؟.. لا يدًا تتطوّع فتُحْكِمُ قبضتها في حنو حول زندي.. لا يدًا أتأبطها فأنجو بها من سكوني.. العصا لا ترى إلاّ بمقدار، ولا تهمس بما رأت إلاّ بمقدار، هي تكذب عليّ كثيرًا، لا تعطيني اليقين الكامل، ولا تحدّد لي الأحجام، والقياسات، والألوان، والظلال...

كان عدمًا، وفقط...

كانت الأصوات بكل فيضها، وجنونها، وتوّترها، وسبابها، ولعناتها، لكن لا أحد يوجه لي كلمةً...

* * *

الحق أنه نُسِيَ، في الجلبة لم يره أحد، غشاوة ما لاحت على

أعينهم، إنّ كل ما يحدثُ بسببه هو، وقوف السيارات، هدير المحرّكات، الأبواق الملعلعة، صافرات إنذار الشرطة، الركلات، اللّعنات، الدماء الساخنة، والأعصاب المشدودة.. كل هذا بسببه، هو الذي توقّف كي يعبر الطريق، ثم مدّ عصاه باحثا عن أمله، والعصا واجهتها عقبة لم يتبيّنها، بدت له حجرًا أو شيئا بقسوة حجر، انتظر ليتوقف أحدهم، ويُفسِح له طريقًا سالكة للمرور، وجاء ابن الحلال، توقّف، ثم قال له بصوت مباغت:

- اعبرْ...

لكنه لم يفعل لأن عقبة كأداء في طريقه، ومنه فقد أهمل الصوت وصاحبه، وبقي.. مع الوقت نُسِيَ... اشتعلت الحياة فألهتهم عنه، وراحت غشاوة تكبر حولهم، فبدا كأن العمى دبّ فجأة في أعينهم، يراهم هو الأعمى، ولا يرونه هم المبصرون، انشغلوا بما حدث وذابوا في فوضى عراكهم وسبابهم وهدير محركاتهم، غرقوا في تفاصيلهم الفرعية الصغيرة، رأوا تفاهات نتائجهم، واختلفوا عليها، سالت دماؤهم، تهشّم زجاج سياراتهم، عوت صافرات إنذار، وراحت تقترب...

جاءت الشرطة أخيرًا...

جاءت لتحتوي الوضع، لتنظّم حركة المرور، وتُفَرِّقَ تجمهر الناس..

* * *

تفـرّق النـاس، راحـت حـدّة الأصـوات تخفـتُ، لا أزال واقفًـا عـلى الرّصيـف، لا تـزال عصـاي في يـدي، ثـم بلغنـي صـوتٌ قريـبٌ:

- هات الوثائق...

لا أحـد رأى مـا حـدث، كل شيء مـر بسرعـة رهيبـة، عـراك، تهشّـم زجـاج، ركلات ودمـاء، شـممتُ كل ذلـك لكـن لا أحـد رآه، أمـا رجـال الشرطـة فقـد اجتهـدوا في فهـم الحادثـة، ثـم حاولـوا بـما لديهـم مـن خـبرة ومـراس أن يصلـوا إلى تحديـد الجنـاة والضحايـا، غـير أنّ الواقـع بـدا كأنّـه يصـوّر لهـم أن الـكلّ ضحايـا، تفحّصـوا السـيارات والأرض، جـراح الأجسـاد، كدماتهـا، سـألوا، اسـتفسروا، وأكثـر مـن صـوت سـمعته يقـول لهـم:

- لا أعرف...

وأكثر من عين رأيتها تقول لهم:

- لم أر شيئا...

* * *

مـسّ أرض المحافظـة الأمنيـة بعصـاه، ارتـد الإحسـاس إلى يـده،

ثـم إلى وجهـه.. امتعـض، بـدا كأن أجوبـة كثـيرة قـد علقـت بعينيـه المطفأتـين...

سـار في الـرّواق الطويـل متأبطًـا يـد الضابـط إلى حيـث مكتبـه، جلـس معتمـدًا عـلى عـين عصـاه، سـمع خشخشـة الـورق وصـوت الآلـة الكاتبـة، والسـؤال المباغـت:

- ماذا رأيتَ؟..

تقلّصـت عضـلات وجهـه المغضّـن، ارتفـع حاجبـه الأيسر قليـلا، قطّـب جبينـه كأنّـما التقـط صـوت الضابـط بجفنيـه ووجهـه، ونبـس:

- رأيتُ الظّلام ...

ساعي البريد

يبدو كما لو أنّ لا شيء، وحرّك يده مرة أخرى ليتأكد أكثر من أنّ الصندوق الحديدي الأصفر يُخفي شيئًا لا يراه، فأحس بملمس الورق.. نعم ثمة رسالة واحدة..

وعلبة البريد تتعلّق برأس هذا العمود الحديدي، وتقوم في هذه الطريق الخالية التي يبدو أنّ لا أحد يعبرها إلاّ فيما ندر، رجّح أنّ وجود رسالة واحدةٍ ربما يعود إلى قناعتهم من أن ساعي البريد لن يمر من هنا، ولن يتفقّد هذه العلبة، لذلك فقد عزفوا عن خدماتها، وربما سلّموا بقَدَرِ الخوف من أنّ الجماعات الإرهابية ستصل قبل أي ساعي بريد آخر، فتضع يدها على رسائلهم وتتصرّف فيها مثلما شاءت.

عاد أدراجه إلى درّاجته النارية، بعد أن ألقى بالرسالة الوحيدة في جرابه، سوّى خوذته بإحكام على رأسه، أدار المحرّك الوحيد في قلب الخلاء فثار الغبار، وانطلق...

بدت طريقه طويلة خالية موحشة مترية، تقوم في هذه المساحة الفارغة من الأشواك والحجارة الناتئة، هي مسرح للرّياح التي تفتح هبوبها من كل الجهات، وفوق هذا فهي تفتقد لأدنى

علامة أو إشارة ترشد التائه أو تعرّفه على أقل تقدير من أين جاء وإلى أين يمضي.. امتداد بعزلته ووحشته، وصمته، إلاّ من هدير محرّك درّاجته النّارية التي تطلق وراءها خيط الغبار المتصاعد، أما هو، فيعرف هذه الطريق حق المعرفة، فقد ولد وترعرع في هذه المساحات المفتوحة، وهو يقيس مسافة الطريق بقلبه، ويحفظ علاماتها وإشاراتها القديمة التي ضاعت واضمحلت وتلفت مع الوقت... يقول في سرّه: ربما الرّيح العاصفة في كل وقت هي السبب في خرابها، من دون أن ينفي عن الأيدي العابثة جُرم التخريب، يتذكّر أطفال المدارس البعيدة ومرورهم من هنا كالجراد الطوفاني، يدمرون أيّ شيء في طريقهم، يقتلعون حتى الحجارة من على جانبيه، ويركلون الأشواك، أما ما بقي واستعصى خلعه فقد تكفّلت به أيدي الجماعات الإرهابية، وهكذا فقد فقأوا أعين الطريق، فلم يتبق من حياة له غير هذا الصندوق الحديدي الأصفر الذي عبره، والذي لقيه ينبض بقلب رسالة كُتِبَ على ظهر مظروفها...

إلى السيّد ياسين عبد الله

ثكنة وادي الرمل

وحدة التدخّل الخاصة

لم ينس قراءة اسم المُرْسِلِ أيضا، فقد كانت امرأة، لا يدري إن

كانت زوجة أو أما أو أختا أو حبيبة، إذ لا تزيد معرفته على أنها امرأة... قريبة أو صديقة لياسين عبد الله، تنحنح فوق درّاجته، ثم همس وسط هدير المحرّك:

- علم ذلك عند ربي..

ما يهم هو إلى من تمضي الرسالة، وبحكم شرف المهنة ونبل الخدمة، فقد وجب أن يؤدي الأمانة إلى أهلها، عليه أن يثبت للناس ثقتهم به، بمهنته، بعظمة وجلال رسالته، ومن ثمّ فإن فعله هذا قد يحيي أشياء كثيرة، يحيي القلوب المنتظرة، ويزيد في الهمم والعزائم على جبهة القتال، ويبعث الحياة في ذلك الصندوق الحديدي الأصفر، الذي بدوره سوف يبعث الحياة في هذه الطريق القفر الخالية التي بالكاد تحتضر..

لا.. لا يمكن لها الموت فقد لاح له بعد مسيرة أكثر من ساعة مع هواجسه وأفكاره، شبح رجل يسند ظهره إلى جذع شجرة خريفية، وفيما هو يقترب بدرّاجته، تنبّه الشبح إلى هدير محرّكها، فترك الشجرة وتقدّم بما يشبه الفضول إلى حافة الطريق ينتظر، راحت المسافة تتقلّص بينهما كلما ضغط على مقود درّاجته أكثر، حتى بدا الشبح رجلا يقف في انتظاره، حينها راح يبطئ من سرعته إلى أن توقّف:

- عابر سبيل؟..

- بل ساعي بريد..

نـدت عـن الرّجـل قهقهـة انتـشر رنينهـا في الفضـاء الفـارغ، وعـاد يقـول:

- عـليّ إكرامـك.. انـزل لتـأكل لقمـة معـي، وواصـل رحلتـك...

ثم قاده إلى زوّادته تحت الشجرة الفارغة الأغصان، وهو يضيف:

- هـذه الطريـق لا أحـد يعبرهـا، وكـي أكـون صادقـا معـك فقـد أدهشـني عملـك..

- فيم وجه الدهشة؟!..

- لقـد تحطّـم كل شيء.. الشّـغف، الانتظـار، الشّـوق، الفضـول، المفاجـأة، السـؤال، بـات تواصـل النـاس أسرع مـن لمعـان الـبرق، لم يعـودوا بحاجـة إلى سـاعي بريـد.

- رغم ذلك فأنا أحمل رسالة.

فقال الرجل وهو يجاهد في مضغ طعامه:

- إنهـا معجـزة.. أن تحمـل رسـالة في مثـل هـذا الوقـت، فهـي بحـقّ معجـزة..

هزّ ساعي البريد رأسه علامة نصر، وهو يسأل:

- ألم يمر بك أحد؟..

- لم أر بـشراً، فأنـا أيضـا أنتظـر أحدهـم هنـا، منـذ سـنوات

تواعدنـا أن نلتقـي، لكنـه لسـبب مـا تأخّـر، حـين أدركـت أنـك سـاعي بريـد، غالبنـي إحسـاس الطمـع بـأن تكـون حامـل رسـالته إليّ.

- رسالتي الوحيدة من امرأة إلى رجل..
- هل تخبره بشيء؟..
- لا أعـرف، واجبـي يدعـوني لأن أوصـل الأمانـة لأصحابهـا لا أكثـر..

شـكره عـلى كرمـه، أدار محـرّك درّاجتـه مـن جديـد، أحـسّ كأنّ صـوت مضيفـه يهمـس بتنهّـد..

- رسول لا يعرف رسالته؟!...

* * *

كان يجهـل الرسـالة، يجهـل مـا الـذي تحملـه، عـلى الطريـق الخاليـة يقطـع شريـط الصمـت، يثـير في الجـو السـاكن بعـض الغبـار، كلمـة مضيفـه تحفـر في روحـه – رسـول لا يعـرف رسـالته– ثمّـة أشـياء لا يفهمهـا، ولا يريـد أن يفهمهـا، ولا يقبـل بإغـراء أو اسـتفزاز يضعـه في موقـف الحـرج مـن نفسـه، لا تهمّـه رسـالة امـرأة إلى رجـل، فرسـالته تتوقـف عنـد حـدود وصـول هـذه الرسـالة إلى صاحبهـا، أمّـا فـوق

ذلك فالأمر لا يعنيه في شيء، زاد من سرعته كي يبلغ مقصده قبل حلول المغيب، لكنّ الطريق موغلة في الامتداد، مع طولها راحت نهايتها تتخفّى تحت غلالة من سحب الخريف وبعض الغربان المتطايرة مع حركة الرّياح.. إنه يلمحها كنقاط سوداء تلمع في قلب البياض، هي قطعًا تمنحه إحساسه بهذا البعد الشاهق، وتُسرِّبُ الوحشة إلى قلبه، لكن إيمانه بقيمة الرسالة، وعظمتها، ونبل ما سيُقدِمُ عليه يدفعه دفعًا لتحدي كل هذا الخلاء، عليه أن يزرع الفرح في قلب ياسين عبد الله، وهو يخمّن بينه وبين نفسه..

- ياسين عبد الله ..
- نعم أنا ..
- لك عندي رسالة ..

يمد ياسين يده المرتعشة، في عينيه فرحة طفل ..

يلقي بالكلاشنكوف جانبًا، يمزق المظروف بعجلة، ويُخرِجُ الرسالة .. يغيب معها وفيها ..

ماذا تقول له هذه المرأة، ومن هي؟..

لا يجيب ياسين.. يمضي في قراءة رسالته مبتسمًا..

حين يتطلّع إلى الأفق يعاود رؤية الغربان من جديد، بعض الدخان المتطاير، لعلها انفجارات تنذر بالموت ...

- ياسين عبد الله ..
- غير موجود..
- ألم يعد من الجبل؟..
- استشهد البارحة في كمين..

نزلت من عينه دمعة، حرص على أن تبقى يده اليمنى على المقود، مدّ يسراه إلى الجراب كي يلامس الرّسالة، كأنه يطمئن، كأنه يداوي وساوسه وخوفه، كأنّ الغربان تحرّك في أعماقه شعورًا بالموت..

لا يمكن أن يحدث الأمر هكذا، لا يجب أن يموت ياسين عبد الله وإلاّ ذهب سعيي أدراج الرّياح، والمرأة التي تنتظر؟.. يجب أن تصله رسالتها... أنا لا أعرف صلتها به، لكنها تبدو وفيّة مُحِبَّة.. لا توجد امرأة تشبهها، قليلات هنّ النساء اللائي يعشن على خيط أمل ووجع انتظار، هذا فعل أمومة، الأم وحدها هي من تعرف معنى جوعها لقطعة منها..

لا يمكن أبدا أن تكون رائحة شوق أخرى غير شوق الأم، أكاد أسمع لهفتها، حنينها، أكاد أرى كلماتها وهي تسيل في روح ياسين كما يسيل الماء على جذور شجرة في قلب الصحراء، هذا الحنين الذي تسرّب في رسالة وحيدة أنقلها على هذه الطريق المفتوحة، هو حنين الأنثى الأصل، سرّ الرحم، سرّ الحبّ، وسرّ الحياة ..

لأجل كل هذا لن يموت ياسين، لا يمكن أبدا أن أستسلم لروح التشاؤم، على الرسالة أن تصل، عليه أن يكون في انتظاري، وأن يستلمها منّي وأن يقرأها، ولربما همس لي:

- أمهلني بعض الوقت كي أكتب لك رسالة إلى أمي..
- نعم أنا في انتظارك.. على أقل من مهلك..

سوف أنتظره إلى أن يفرغ من كتابته، سأحمل رسالته إليها في جرابي، سأعود حاملا الفرح لقلبها، ستعرف أن ولدها حي يرزق، أنه بخير، وأنه لا يزال يقاوم ببسالته هؤلاء القتلة..

* * *

كان يعيش هواجسه الداخليّة، يمضي على شريط الطريق المتربة.. بدأ دخان الانفجارات البعيدة يقترب شيئا فشيئا، وقبله ملأ نعيق الغربان سماء السمع، تخلّص من خوذته حتى يدرك الأصوات كاملة، جال ببصره في الأرجاء، سحاب الخريف يتكاثر، يتداخل مع الدخّان بسواده الحالك، هدير درّاجته يصنع صوت هذه القفار.. يقترب، والمغيب يقترب من ساعته الأولى...

يتحسّس جرابه بيده، يتحسّس الخلاء القريب بعينيه... جثث، ثمة جثث في العراء.. لا تصدّق العين ما تراه، محال أن يكون

الموت بكل هذا السفور، أوقف دراجته، ترجّل عنها، كمّم صوت المحرّك حتى تبدو أصوات الخلاء أقرب وأوضح..

السّحاب، الدخان، الغربان، الجثث، يستحيل أن يعثر على ياسين في هذه الكوابيس... الانفجارات يسمعها بعيدة لكن البصر يصور الأحداث عن قرب، الآن فقط يتذكّر ذلك الرّجل الذي قابله في طريقه، يتذكّر سرّ عدم رؤيته لأيّ مخلوق طوال هذه السنين، الآن فقط يعرف لِمَ يعزف الناس عن إرسال رسائلهم؟..

وقد يجيب نفسه بشيء من القسوة وهو يضرب كفًا بكف:

- لقد تفرّغوا للقتل كالضباع...

راح يمشي بين الجثث، في قلبه عاصفة من بكاء، وفي روحه خوف على رسالة قد لا تصل أبدا، قد يموت هو دون أن يؤدي الأمانة إلى أهلها، قد لا ينعم برؤية وجه ياسين وهو يُكلّلُ ببسمة فرح.

عاد كي يواصل طريقه، شحنته قوة ما، ركبت روحه التحدي، عليه أن يصل، على الرسالة أن تصل، فليمت هو لو قدّر الله له أن يموت، المهم أن تصل الرّسالة إلى يد ياسين، وهو خمّن أن والدته هي من أرسلتها إليه، من خبرته الطويلة ومراسه صار يشمّ أرواح الرسائل، صار يقرأها قبل أن يطلّع عليها أصحابها، لكن مع الوقت راحت الرّسائل تتناقص، ومع الوقت بدأ

يفقد خبرته في فهمها وشمّ حقائقها، بدأ ينسى ويفقد قدرته على الحياة داخل ملامح رسائله، لهذا فقد بدأ يشك، وبدا له كأنه تسرّع في حكمه، أما القول بأن الرسالة من الأم، فهو قول سابق لأوانه، عليه أن يتريّث، فقد باعدت السنوات بين خبرته الرّوحية تلك، ومحاولته الآن...

ياسين حبيبي... سأنتظرك حتى تعود، لقد عرضوا عليّ الزواج لكنّي رفضته..

عش لأجلي...

في الرّسالة حرارة، شغف، وحبّ، في الرّسالة جوع انتظار وبرد، هي حبيبته لا غيرها، فاجأوها بالزواج، ففرّت إلى كتابة هذه الرّسالة، لقد وضعت كل ثقتها في ياسين، وقبله وضعتها فيّ أنا، وعليّ أن لا أخذلها، وعلى الموت أن لا يخذل ياسين، علينا أن نعيش ثلاثتنا حتى ننجو...

لأول مرة يرتبك في تحديد هويّة علاقة المرسل بالمرسل إليه، لأول مرة يخسر وبالتحديد الدقيق قراءة رسالة وحيدة في جرابه، لأول مرة يتشتّت بين احتمالاته، وهو بلا يقين، فشكّه أساس نبله، وهو بمقدوره أن ينسف هذا الشك بفضّ مظروف الرسالة وقراءتها، ثم إعادتها كما كانت، لكن مثل هذا الفعل سيحرق ضميره، وسينهيه إلى الأبد، وبين الدخّان، والظلام الذي

حـلّ، ودويّ انفجـارات، وجثـث تقدمـت في تعفّنهـا، عليـه أن يجـد ياسـين كـي يشـفى مـن شـكّه ويخلـص مـن حملـه، وعليـه أن يتقـدّم أكثـر في طريقـه كـي يخـترق هـذا الجنـون.

* * *

عـلى روح الظـلام لاحـت لـه الثكنـة بأسـوارها العاليـة، وسـياجها الشّـوكي، وأبوابهـا الحديديـة الكبـيرة، وأكيـاس الـتراب المتراصـة بشـكل جـدران، فتقـدّم..

اندفع بكل طاقة الحبّ إلى أتون الفرح:

- أخيرًا لقيتك يا ياسين...

ولكن الصوت فاجأه من عمق الظلام:

- قف مكانك لا تتحرّك... مَنْ هناك؟..

لم يجـب.. سـكنت الأصـوات، لاحـت كشّـافات الضـوء، وعـلى نورهـا تبـدّت جثّـة ملقـاة عـلى الأرض، وجنـدي يقلّـب رسـالة في يـده.

الكرسيّ

المرأة التي ركبت من المحطّة لم تحظ بكرسيّ ينجيها من تعب النهار، استندت بكل ثقلها إلى كرسيّ الجالس إلى يمين الرّواق، مدت يدها اليمنى إلى حلقة العمود الحديدي المعلّق في سقف الباص، ليست وحدها، فأجساد كثيرة يطوّحها الاهتزاز على الطريق المهترئة، وأيدٍ كثيرة متعلّقة بحلقات عمود السقف... الجو عرق، والرائحة بنزين، والصوت هدير موتور يعلو عمّا عداه..

من النافذة تجري الأشجار إلى الوراء على جانبيّ الطريق، في الداخل تتكدّس الأجساد على الكراسي وفي الرّواق..

رغم ذلك فالاستياء يقطع ثقل هذا الجو، يحتجّ أكثر من صوت على هذا الوضع، غير أنّ السّائق يهمل ما يتناهى إليه من تململ أو تذمّر أو تأفّف أو شكوى، يركّز على قيادته، وعينه على الطريق.

هو لا يهمّه إن أفسح أحدهم من أبناء الحلال مكانًا للمرأة التي صعدت من المحطّة، والتي تجلّت بكل ضعفها وتعبها، أما هي فتعلّق على كتفها حقيبة جلدية بيضاء تناسب لون طقمها

السـاتان، وتحمـل بعـض الأكيـاس في يديهـا، وهـو يقينًـا يعـرف أنّ مثـل هـذا الفعـل قـد ولّى زمنـه.. أنْ يقـف رجـل أو شـاب كـي يؤثِـر امـرأة بالجلـوس، فالأمـر مـن رابـع المسـتحيلات.

ما الذي حدث؟..

لا شيء، فالنّـاس أحـرار فيـما يفعلـون، والبـاص يهتـز بـكل مـن فيـه عـلى الطّريـق المهترئـة، العـرق، رائحـة البنزيـن، القيـظ، وبعـض النوافـذ الزجاجيـة قـد آلـت أزرارهـا إلى التخريـب، لذلـك فليـس مـن الممكـن، ولا في قدرتهـم فتحهـا.. سـتبقى مغلقـة، وسـتبقى أصـوات اسـتيائهم:

- لن نصل في هذا الحرّ.

بـدت طريقهـم أطـول، وبـدا كأنّ الوقـت لا يتحـرّك.. راح الملـل يتسرّب إلى أرواحهـم، ظلّـت أيديهـم معلقـة بالحلقـات المغروسـة في السـقف، لاح التعـب في وجـه المـرأة أكثـر، وهـي تجاهـد بـكل مـا بقـي لديهـا مـن قـوة النهـار لكـي تُبْقِـي جسـدها بعيـدا عـن الأجسـاد الأخـرى.

ممنوع اللمس...

يافطـة صغـيرة تومـض بحروفهـا العربيـة وفوقهـا زر البـاب الخلفـي، عـلى الأجسـاد والأيـدي الأخـرى أن تحـاذر قـدر مـا تسـتطيع كـي لا ترتطـم بالـزر، وإلاّ فُتِـحَ البـاب ووقعـت الكارثـة..

لذلك تُبْقِي جسدها في الوضعية التي تحميها من أيّة ملامسة مبيّتة أو بريئة، فحركة سير الباص مربكة، والطريق تزيد من وعورة انسيابه، فتعرّضه لهذه الهزات، وتعرض معه الأجساد إلى الارتطام ببعضها البعض، ويطلع صوت لا يُعْرَفُ مصدره:

- انتبه ..

فيجيبه صوت مجهول المصدر:

- الله غالب ..

كأنّ أحدهم قد داس رِجْلَ آخر، فالرّواق ضيّق وهم بالكاد يختلقون حيّزا لأجسادهم المتعرّقة، الحيّز لا يفي بالغرض، ولا يعطي للواقف فسحة مريحة تغسله من تعب يومه..

فليصبروا على ما هم فيه، وليحذروا فلعل يدا تتسلل بخفّتها في فوضى الزحام إلى جيب ما...

غير أنّ لا شيء يحدث، ولا يوجد ما يدعو لأن يتغيّر شيء، فالباص يمضي في سيره الرّتيب، العرق، الاستياء، القيظ، هدير الموتور، وبعض الأصوات التي تشتعل ثم تنطفئ، والمرأة تسند ظهرها إلى حافة كرسيّ الجالس في يمين الرّواق، معلّقة يدها البيضاء في الحلقة، تمتعض أحيانا، تسرح أحيانا، تتأفّف أحيانا أخرى، والسائق يتابع قيادته بمهارة، ويرنو إلى الطريق، ويسأل:

- ألا ينزل أحدكم في المحطة التالية؟..

ينتظـر أن يجيبـه أحدهـم، فـلا مـن مجيـب، لا أحـد ينـزل إذن... تتمنـى المـرأة لـو أنّ بعـض الـركاب كان خيارهـم المحطـة التاليـة، حينهـا سـيمكن لي أن أجلـس .. تقـول بينهـا وبـين نفسـها.

أمـا الحقيقـة فـإن الخيـارات تتأخـر، صـوت السـائق يذهـب في الفـراغ، فيواصـل قيادتـه متجـاوزا المحطّـة..

تغـيّر المـرأة مـن وقفتهـا بتغيـير يدهـا التـي تسـتقرّ على حلقـة أخرى، فيصطـدم جسـدها بالواقـف أمامهـا مبـاشرة، تحـاول أن تنسـحب قليـلا حتـى لا يحـدث ذلـك التلامـس الـذي يرعـب روحهـا، لكـن الحيّـز الـذي وقفـت فيـه هـذه المـرة يحرمهـا قدرتهـا عـلى المنـاورة، بـلا رغبـة، وبـكل الرّعـب ينفلـت جسـدها مـن قبضتهـا، تحـاول أن تثنيـه عـن انطلاقـه فـلا يتوقـف، ويزيـد مـن قلقهـا اهـتراء الطّريـق، واهتـزاز البـاص، وحركـة جسـدها التـي لا تلجمهـا يدهـا الصغـيرة اليـسرى المعلقـة، تحـاول أن تغـيّر وضعيـة وقفتهـا حتـى تنجـو مـن هـذا الجنـون، تسـتدير نصـف اسـتدارة، ثـم تدفـع بالحلقـة التـي تعلّق بهـا يدهـا إلى الأمـام، فتعـرّض جسـدها للملامسـة أكثـر مـن ذي قبل، تحتمـي بالصمـت، تلـوذ بالاهتـزاز، فـلا أحـد يلحـظ مـا يجـري، ولا عـين تـرى مـا يحـدث، ولا مـن يعـرف عنهـا شـيئا، هـي امـرأة وفقـط... مجـرد أنثـى عابـرة مملـوءة بفيـض مـا، بسـحر مـا، رغـم التعـب الـذي يسـيل مـن ملامحهـا، ورغـم أمـارات التأفّـف التـي

راحت تختفي مع الوقت، لا أحد يمكن له أن يجزم أنها متزوجة أو عزباء، مطلقة أو أرملة، حبيبة أو عاشقة، هي الأنثى بشمولها، وحسّها، ونظرتها التي راحت تتكسّر وتذبل كذؤابة القنديل، هي إشراق العطش في الشفتين الذي تداعى وامتد، آهات تتكتّم في عمق العمق، فرحة مقتولة بالحزن، شغف مذبوح بسكين الخوف، زمن لا قياس له ولا فيه، مسافة هزتها يد الرّعشة، والصوت القادم من دنيا لا تنتمي إليها:

- ابتعدوا قليلا عن الباب الخلفي...

* * *

تراجعوا ببعض الفوضى، وفُتِحَ الباب ...

نزلوا...

تفرّقوا ...

والمرأة التي ركبت من المحطّة... حظيت أخيرًا بكرسيّ...

الجثّة

وجدوها على الثلج في صباح بارد، مجهولة الهويّة، تخلّصت من أثر قاتلها واستغرقت في سكونها...

اشتعل الخبر كعود ثقاب في كومة قش يابسة، فالمدينة لم تشهد الموت منذ سنوات طويلة، فضلاً عن جهل سكانها لفعل القتل، وهم لحدّ اللحظة لم يعرفوا، أكان الأمر مجرّد موت طبيعي أم أنه حادثة قتل مريعة؟

فالحادثة مثلما تتناقلها الأخبار، أنّها وُجِدَتْ مسفوحة على جانب الطّريق، وقد غطّى بعض أجزائها الثلج، هم يجهلون أيضا إن كانت الضّحية امرأة أو رجلا، طاعنة في السن أو فتيّة، وقصارى معرفتهم أنها لكائن يحمل كل أسرار حياته وموته معه، فلا أحد من أهل المدينة لمّح لفقدان قريب، ومنه فقد تكوّنت لديهم تلك المعرفة الضئيلة والبسيطة، من أنّ الجثة هي لغريب عنهم، اختار الموت على حدود مدينتهم في مثل هذا الوقت البارد العاصف، مع الوقت زادت جرعات السؤال التي لا تظفر بجواب، وتحوّلت الحادثة إلى معنى كامل يتغلغل في حياتهم:

- كيف كان الموت؟..

- من أين؟..
- من يكون؟..
- من عثر عليها؟!..

الأسئلة لغو سرعان ما ينطفئ، عمر الشتاء طويل، ندف الثلج مازالت تتساقط، والموت ضرب بيده البشعة من دون أن يعطي أسبابه أو يفضح معناه، كأنه يُذَكِّرُهم بوجوده من غير أن يمسّهم، فتزيّ لهم في جثة فارغة من المعنى، لكن لا أحد فهمه ولا فهم رمزه فيها، محال أن يكون الموت بلا أسباب، فلكل رحيل علّته، ولكل ميّت حياة سابقة تخبر عنه، تعطيه حيّزًا ذا معنى.. جنسه، لونه، شكله، طوله، اسمه، رائحته، ذكرياته، أحلامه، آلامه.. الماهية والوجود الذي كانهما.. أمّا هذه الجثة، فهي الفراغ الذي لا معنى له، الموت في تجرّده الكامل، في دهشته العاصفة، في برده المطلق، إذ لا أحد يعرف، ولا أحد يفهم، ولا أحد يرى، ثم من عثر عليها؟... وأين أودعوها؟... ولِمَ كل هذا التكتّم والصّمت الذي يخفي كل شيء ويعصف بأي دليل قد يفيد الأسئلة العالقة.

لا أحد يجيب...

بدأ وهن التواصل يدبّ بين الناس بفعل انقطاعهم عن الخروج من بيوتهم التي أغلق أبوابها الثلج، وتقطّعت بهم

السبل، وزادت حدّة البرد أكثر، فبدت المدينة غارقة في صمتها المريع..لا شيء يتحرّك، والحادثة هي كل ما بقي يدبّ داخل هذه البيوت الوادعة، الأخبار شحيحة لا تسدّ رمق الفهم، لذلك فقد انتظروا لعلّ جديدًا يطرأ... قد تتوقّف الثلوج عن إغراق الأرض بندفها..

وظلّ الثلج يتساقط...

حوصرت المدينة بالبرد، وبهذا الانسداد الرّهيب، راح الطعام والحطب ينفدان مع الوقت، تعطّلت أعمال الناس، ولربما بدا الأمر لهم كأنه اللّعنة، لعنة هذه الجثة التي فجعت مدينتهم، وألحقت بهم كل هذا الخراب والصّمت والبرد...

لا أحد يعرف...

لا جديد...

ألغاز عصيّة على الفهم، قدرٌ حلَّ، كأنّما أنياب الموت ووجهه الشّاحب.. تصلّبت المراجيح على أكفّ الأشجار، تساقطت الغصون تحت ضغط ثقل الثلج، اشتعل البياض في كل شيء، وحتى تلك الكلاب الشّاردة التي كانت تجوب الأزقة مطلقة نباحها بين الحين والآخر، ما عاد يُسْمَعُ لها حسّ ولا رأوا منها أثرًا...

- وأين الجثّة؟!...

هكـذا سـألوا فلـم يلقـوا جوابًـا، قـال بعضهـم محدثًـا نفسـه أو جاهـرًا بصوته:

- لو عرفنا سرّ الجثة، فقد نعرف ما الذي لحق بنا...

هبّـت ريـح بـاردة محمّلـة بنـدف الثلـج، في الفضـاء لا أثـر لدخّـان تلـك المـدافىء التـي نفـد منهـا الحطـب.

- أين اختفت الجثّة؟!...

بـل مـن يضمـن أنـه رآهـا، هـل مـن دليـل واحـد يثبـت كونهـا؟... أليـس مـن الجنـون أن يكـون السـؤال بـلا معنـى، فالمنطـق يقتـضي أنهـم رأوهـا، فمـن يدلـل عـلى رؤيتهـا، وعـلى وجودهـا الحـيّ؟.. أيكـون الوهـم قـد اسـتحكم بـكل هـذه القـوة، وتجـذَّر في رؤوسـهم، ومـلأ حياتهـم، وفـاض عـلى ألسـنتهم؟...

لا أثر لجثّة...

ولا جثّة...

لا أحـد يشـهد أنـه رأى بـأم عينـه، أو واتتـه القـدرة عـلى وصـف جنسـها، وطولهـا، ولـون بشرتهـا، وشـكلها، وتفاصيـل لباسـها...

المدينـة تـذوب في الثلـج سـاعة بعـد أخـرى، الأعطـاب تـدبّ في ضرورات الحيـاة.. لا حطـب، لا كهربـاء، أسـلاك الهاتـف باتـت بـلا حـرارة، والمؤونـة بـدأت تنفـد إلى الحـدّ الـذي دفـع النـاس إلى بدايـة القلـق عـلى مصيرهـم.. ثمـة شيء يحـدث، وهـم لا يعرفـون

مـا هـو، ولا كيـف تورّطـت مدينتهـم فيـه؟.. أمـا القـول بـأنّ السـبب هـو الجثّـة، فهـو قـول فيـه مـن عـدم اليقـين مـا فيـه، ولـو كان بمقدورهـم أن يلتقـوا لفعلـوا، ولتناقشـوا، وتحـاوروا في الأمـر، وفكّكـوا شرّ الأحجيـة، لكـن الثلـوج المتراكمـة، والـبرد القـارس، والظلمـة الموجعـة، عـزّزوا مـن عزلتهـم، وزادوا في لا تواصلهـم، وفي بـطء الوقـت وسـكون الحركـة، بـدا كأنّ الاحتضـار يعصـف بالمدينـة، لا حيلـة لهـم، ولا فهـم ينجيهـم ممّـا هـم فيـه، وزاد مـن قلقهـم أن حملـت لهـم هـذه الرّيـاح العاصفـة رائحـة نتنـة.. عفونـة راحـت تتسـلّل مـن شـقوق الأبـواب والنوافـذ...

- هذه نتانة الجثّة...
- لا... لا يمكـن... الجثـث لا تتفسّـخُ في درجـة بـرودة منخفضـة كهـذه...
- فلمن الجثّة؟!...
- لا أدري...

العفونـة تمـلأ الجـو، تسـدّ أبوابهـم ونوافذهـم، وتزيـد في تسـلّلها مـع الرّيـح الكائنـات لا تتعفّـن في الثلـج، تبقـى بكامـل بهـاء أعضائهـا، تميـل البـشرة إلى زرقـة المـوت، لكـن الجثّـة.. أيّـة جثّـة.. تظـل محافظـة عـلى كمالهـا، خافيـة أسرار قاتلهـا...

* * *

لأيـام طويلـة اسـتمر الثّلـج، لعبـت الرّيـاح البـاردة بـكل شيء، وهـذا هـو عمـر الشـتاء هنـا، فقـد ألفـوه وخَـبَرُوه، لكـن ليـس بمثـل هـذه الحـدّة وهـذا الطـول، قـال بعضهـم لنفسـه:

- لا... لا... لا علاقـة للجثّـة بذلـك، فحتـى لـو متنـا فنحـن عـلى الأقـل لم نرهـا...

وقال آخر:

- الأمـر يرتبـط بتلـك الجثّـة، إنهـا ليسـت محـض خيـال، ولـو لم تكـن... لـو لم يرهـا أحـد مـا... مـا كان خبرهـا سـيذاع بـين النّـاس، ولا عرفنـا حديثًـا عنهـا...

لا أمـل يلـوح لفهـم مـا يجـري، وهـا هـو الخـوف يتسـرّب إلى قلوبهـم الآمنـة، وهـا هـي روائـح الجـوع تنـشر صداهـا بـين هـذه الأزقـة الفارغـة البـاردة، كل هـذا والجثّـة تتخفّـى في سرّيتهـا التامـة، بـل إنّ بعضهـم يشـكّك في وجودهـا...

- لا جثّة... قالوا..

وأضافوا:

- لم نر شيئًا...

وكيف يكون إيمانهم بشيء لم يروه، وبحقيقة غير حقيقية؟...

لا يقين لهم، الشتاء والموت والبرد والجوع، والمدينة أقفرت... لا شيء تلوح فيه الحياة، ولا حتى بصيص أمل في سؤال عنهم، ثم راح صبرهم ينفد كطعامهم، ولأول مرة منذ أيام علا صوت بكاء أطفال ملتاع في السماء الباردة، وسُمِعَتُ معه بعض الصلوات، بدا كأنّ هبّات من الأمل تتوالد، لم ينتصر اليأس على قلوبهم، وبدأ بعضهم يعاند جبروت الطبيعة محاولين فتح أبواب بيوتهم ليجدوا حلًّا لمصيبتهم، تعالت أصواتهم مختلطة بين التحدّي والرّعب والأمل:

- ادفع... ادفع بقوة...

علا الطّرق...

استيقظ من سهمه، تراءت زوجته بروبها الطويل وهي تملأ باب الغرفة، بدا على وجهها بعض الاستياء، فنبس:

- قاربتُ على النهاية...
- هل ثمة نهاية فعليّة لما يحصل؟!...

همس لها كأنه يهمس لنفسه:

- نعم سنكون بخير، لو آمنّا بما نجهله.

الرائحة

حين أمسك حفنة الهواء وشهق باحثًا عنها، لم يخامره شكٌّ بأنّ الرّائحة ستطير، وبأنه سيفقد معنى حضورها، فقد كان الهواء فارغًا من كل شيء، أغمض عينيه حتى يذيب الواقع أمامه، وينخرط بكلّيته فيما تقطّره الرّائحة، شهق مرة أخرى... لا أثر...

خسرها منذ زمن، منذ أن التقاها في الباص، حيث حدث كل شيء بسرعة، وحيث كان العطر حالة الفهم الصحيح لكل ما حدث. كان إلى جواره يومها كرسيّ واحد.. من حسن الحظّ أنه غير مشغول، وحين مرّت لتجلس، صافحه عطرها لأول مرة، وبدأت المعرفة...

حديث لحوار متوتر، مشتعل، عفويّ، في طول المسافة وحركة الباص البطيئة توطّدت وشائج الصلة، وتعمّقت ظلال هذا الحوار، سألها عن اسمها فلم تجبه، تداخل الحوار وتشعّب، وبدت له ببسمتها وهي تقطر خجلاً، عانقه عطرها بكل ما يحمل من نعومة وخيلاء وحياة...

ثم اتفقا وقد وصلت إلى محطتها أن يلتقيا من جديد:

- متى؟...

- لا أعرف...
- غدًا؟..
- ربما...

قال وهو يستريح ويريحها إلى اقتراحه:

- ليكن ذلك غدًا، وفي نفس توقيت اليوم.

ابتسمت، أوحت له بعينيها على الموافقة، وانسحبت خارج الباص...

من يومها لم يرها، امرأة بلا اسم، بلا هوّية، أنثى مجردة من كل شيء إلاّ من عطرها.

وهو يركب الباص كل صباح، في نفس ذلك التوقيت الذي قابلها فيه، يبحثُ أحيانًا بعينيه بين صفوف الكراسي المتراصّة إلى جواره، يحملق في المساحات المفتوحة على طول المحطّات، وفي بعض الأحيان يستقل تاكسي إيمانًا منه بأنها ربما تكون قد غيّرت مجرى حياتها في الوصول إلى مقرّ عملها، وكثيرًا ما كان ينزل في محطّتها، ويبقى لوقت يسير مقلبًا رأسه بين احتمالات حضورها أو مرورها...

هكذا إذن...

لا اسم...

لا هوّية...

لا مكان...

حالة زئبقية تبدو أقرب إلى السّراب منها إلى واقع اللحم والدم...

صباحٌ واحدٌ باردٌ من صباحات ديسمبر حيث وقعت الجريمة، وحيث انسحب القاتل بهدوء وصمت، نافضًا مسرح فعلته من كل ما يدينه...

لا بصمة...

لا شعرة...

لا أداة جريمة...

فقط دبيب رائحة بدأ يستلّها من عجين الذّكرى، ربما هي قدرة الرّوح على إعادة تشكيل ما خسر فهمه الوعي، نثار رائحة ما بقي راسبًا في كأس الإهمال منذ ذلك الصّباح البعيد، صوت الرّائحة الأول حين يطلّ برأسه ويبدأ حركة حضوره، علقة الولادة الأولى في رحم الأمل والتي ستكبر مع الوقت كي تكشف عن كمال جنين المعرفة...

- هذا ما خلّفتْ وراءها...

يهمس لنفسه، ويستسلم في أوقات الفراغ إلى غمزات هذا الحنين المفاجئ، حلاوة الدبيب الذي ينذر بالحياة..

- هذا هو الخيط الذي يقودني...

والخيط واهٍ، أوهن من نسيج العنكبوت، لكن الفريسة على

بعدها، ووزنها، وسرعة طيرانها، ستخضع في النهاية، وسيصنع الخيط على وهنه معنى لقاء جديد.

الرّائحة لم تكتمل، ملامح وجود وهميّ يتبدّى ثم يختفي في سرعة البرق، حالة ما تعطيها معناها، ثم تنسحب دون أن يجمع وجه الصورة الكاملة.

في العمل راح يجتهد أكثر، تحفّزت كل حواسه للمطاردة الشرسة، في الرّواق وبين المكاتب، زميلات العمل وعطورهن، وسهمه وهو يشهق ثم يقرأ، ثم يطرق متأملاً في صمته القاتل، ثم يزفر، وكلمته الوحيدة، الغامضة، القاطعة...

- لا....

لم تكن هي، فروحه وحدها تعرف نبض تلك الرّائحة التي تبحث عنها، مفاتيح الرّائحة وتكوينها، أصلها، وفصلها، وذراتها في يد الرّوح، والرّوح في يد الغيب لا في يده، ومنه بدأ يدرك حجم فواجعه.. لا لغة تتعرّف إلى تلك الرّائحة، وليس بقدرته امتلاك وصف ولا معنى لأي حرف كي يحصر حدودها في تعريف واضح مفهوم يخاطب به أي كائن، خصوصًا وأنّ الرائحة بدأت تعرف طريقها الكامل إلى روحه، لتتحوّل مع الوقت إلى عطر فيه كمال الوضوح والرؤية، وفيه نعومة اللمس، وفتنة الإشارة، وشرود النظرة، وقدرة الابتسامة، ورعشة الوجنة،

واهتـزاز الشّـعر... كل ذلـك بـدا جليًـا مفهومًـا واضحًـا.

لكـن.. أيـة لغـة قـادرة عـلى تعريفـه وتصريفـه في حـروف محـدّدة تنـزل بـه مـن مسـتوى التجريـد إلى التجسـيد؟.. ومـن غيـب الـرّوح إلى واقـع الجسـد؟...

لا لغـة تقـود إلى المعرفـة، بـدأ يعـي حجـم التفـكّك بـين الأشـياء، هـذا العجـز الفاضـح في فهـم الرسـالة في رمزيـة حروفهـا، أو تقريـب النـاس إلى مـا يحسّـه أو وصـف يدقّـق بـه معنـى العطـر فينفـذ بـه إلى المعرفـة ...

لا أمل إذن...

يقف أمام المرآة، ويجرّب:

- .....

لا ينبـس بكلمـة، فقـط يغمـض عينيـه، فيذيـب وجـه الواقـع أمامـه، ويدخـل في عمـق الذكـرى، يجـري إلى مسـاحات بعيـدة، إلى ذلـك الصبـاح الديسـمبري، حيـث التقاهـا أول وآخـر مـرة...

بإمكانـه أن يعـزل رائحتهـا عـن ملايـين الرّوائـح، بقدرتـه أن يفعـل ذلـك دون جهـد ودون عنـاء، يحـرّك رأسـه في نشـوة غامـرة، فيـما لسـانه يخونـه في اسـم العطـر، فيفقـد الطريـق إليهـا...

وبـلا يـأس يمـضي مقتفيًـا أثرهـا في روحـه مـن ذبذبـات الحنـين، يفهم عطـب اللغـة، خسـاراتها، إفلاسـها في فهـم مـا يطالـب بـه، ويعـرف

محدوديتها التي تظل مجرد محاولات يائسة في نقل الحقائق بين الناس.

رغم كل هذا، يمضي بإيمان وتصميم داخلي مدركًا مع الوقت أنّ الرائحة لا تقتصر على اسم عطر، أو تركيبة ذرية، أو تآلف وتناغم بين شذا الورود، فكل ذلك يبدو كشكل وكظاهر لتلك الرّائحة التي صافحت أنفه في ذلك الصّباح البعيد، مجرّد عطر اقتنصه من هواء حضورها، وتحوّل مع الوقت بفعل السؤال والبحث والشوق والانتظار إلى هذه الرّائحة الجديدة، تركيبة ذريّة روحية لا يعرفها إلاّ هو، ولا يفهمها إلاّ هو، ولا يملك من المفردات ما يجعله قادرًا على وصفها، لذلك فقد كفَّ عن الكلام، حبس ذاته وراء الصمت، وسلّم بإيمان مطلق بأنه انتهى، وأنّ تلك الرّائحة التي يحيا من أجل البحث عنها هي كل معنى الحياة الذي تعرّف إليه وخسره عن طريق الصدفة... عاد يجمع حفنة هواء بين يديه كما تعوّد... أغمض عينيه، وشهق ما قدّرَ له، ذوَّب كل شيء أمامه، ثم عاد فأطلق بصره بدهشة قاتلة...

لا أثر لتلك المرأة...

أما رائحتها فقد تبدّت كأنها رائحة جنازة تتسلل إلى روحه، فسلك الطريق مقتفيًا أثرها في صمت.

كعب الحذاء

لـو لم يكـن الرجـل العابـر إلى جوارهـا بالصدفـة لسـقطتْ أرضًـا، فقـد تلقّفهـا بيديـن مرتعشـتين ولسـان متعثّر:

- يا ستّار...

ارتبكـت، خجلـت، اندهشـت، وهـي بـين يديـه بـكل ثقلهـا، فارتبـك، واسـتنفر كل طاقتـه، وهـو يسـندها كـي لا تقـع، جـاءه صوتهـا فيـه بعـض الغصّـة والغضـب مـن نفسـها:

- هذوا هوما الطرق تاع العرب...

فقال مطمئنًا:

- الحمد لله أنك بخير.

عـادت تلتقـط أنفاسـها، وعـاد يلتقـط أنفاسـه، ويفتشـان معًـا عـن سـبب هـذه العثـرة، وهـذا السـقوط المفاجـئ، سـألها وهـو يبحـث بعينـين لامعتـين:

- هل ضاع منك شيء؟...

- لا أعرف...

- هذه الحفر اللعينة لا تُرَى بوضوح كامل.

انحنـت لتمسـح بعينـين يقظتـين تلـك المسـاحة مـن مـسرح تعثّرهـا،

لكنهـا أحسـت للحظـة وكأن جسـدها يخذلهـا، فلـم يكـن في تمـام تناسـقه، إذ بـدت لهـا وقفتهـا مريبـة بعـض الـشيء، وتوازنهـا مختـل إلى الحـد الـذي جعلهـا تـدرك أنّ هـذه العثـرة قـد كلّفتهـا كعـب حذائهـا الأبيـض...

- خسرتُ كعب الحذاء...

عـاد الرجـل يتفحّـص الأرض بـشيء مـن الـتروي، راح يحـصر المسـاحة التـي تعثّـرت فيهـا بعينـين حازمتـين، بـدا لـه أن يعيـد تمثّـل المشـهد في رأسـه مـن جديـد، فيـما انحنـت هـي أكثـر تقلّـب بصرهـا في هـذه المسـاحة المملـوءة بالأتربـة والحجـارة...

- كيـف يتركـون الرّصيـف منقـوص البـلاط، فيعرّضـون حيـاة النـاس للخطر؟..

سـمعته وهـو يتسـاءل بأسـى، في نفـس الوقـت الـذي شـعرت فيـه بأنـه قـد أطـال المكـوث معهـا في قلـب الشـارع. فكـرتْ في الانسـحاب بحـذاء منقـوص الكعـب، فكـرت في مشـيتها التـي قـد تبـدو فيهـا وكأنهـا تعـرج، فكـرت لـو تخلـع فـردتيّ الحـذاء وتتحـرر بمشـية مسـتقيمة، فكـرت فيـما قـد يصيـب أخمـص قدميهـا مـن أذى، فكـرت في رؤيـة النـاس لهـا وهـي عـلى هـذه الحـال، فكـرت في ردود أفعـال زمـلاء وزميـلات العمـل عـلى مثـل هـذا الموقـف، فكـرت في قطعـة حجـر تعيـد بضرباتهـا الكعـب إلى مشـط الحـذاء، وفكـرت في

إسـكافي يحـل مشـكلتها مـن جذورهـا...

وأمعنت في البحث...

وأمعن الرجل في البحث معها...

ثم قالت بشيء من القلق:

- يا له من نهار...
- فلنحمد الله على أنه لم يحصل لك أيّ مكروه.
- ولكنني عالقة بلا حذاء...
- ليست مشكلة.
- لكنني لا أعرف حتى كيف أمشي...
- لنجتهد في البحث عن الكعب أولاً.

عـادت تـراوح في المـكان مـن جديـد، تنقـل خطواتهـا برويـة وحـذر، وتحملـق في المسـاحة المتاحـة التـي شـهدت عثرتهـا... قطـع أحجـار صغـيرة متناثـرة، بعـض قطـع البـلاط المهشـم، الأتربـة، هـذه الحفـر اللعينـة، النتـوءات....

والرّجـل إلى جانبهـا، يجتهـد بـكل مـا أوتي مـن قـدرة بـصر، وحركـة في البحـث معهـا، وعاودهـا اليـأس مـن جديـد، فتسـاءلت:

- كيف يحدثُ هذا؟!..
- ما الذي حدث؟..
- الكعب..

- ما به؟..
- كيف يضيع في هذه المساحة الصغيرة؟..
- سنجده..
- لا يبدو لي ذلك.
- تفاءلي خيرًا.

نظرت إلى الساعة في معصمها، وهمست:

- الوقت...

فأومأ لها برأسه كأنه يقول: نعم هذا هو ما يدفعنا إلى الكد في البحث أكثر.

كانا بعيدين عن محلات بيع الأحذية، فكّر في إسكافي، وربما فكّر مثلها في حلول كثيرة لمشكلة لا تخصّه، سيّدة لا يعرفها ألقى بها الصّباح في طريقه، وحذاء مكسور الكعب، وكعب لا أثر له، والوقت يُلزِمُهُمَا بالذهاب كلٌّ إلى وجهته، تنهّد، وعاد يتساءل بفتور:

- كيف... كيف يختفي الكعب بهذه الصورة الغريبة؟!...

كانت منشغلة عنه بالبحث، فأضاف:

- هو لم يختفِ، هو في مكان ما، وهذا المكان الذي يتواجد فيه هو الذي لم نعثر عليه...

استمرت في البحث، كان الصباح غارقًا في شمسه الكسلى، بدا

الشارع في فراغه، لا سيارة تمر، ولا عابر... بدا وكأنهما بوجودهما يملآن هذا الكون...

حتى قال لها:

- هناك...

أشار بسّبابته إلى مكان ما، حدّدته بعينيها من إشارته، تحرّكت نحوه، فخيّبت أملها وأمله...

- حجر...

لم يكن كعبًا، مجرد حجر يتساوى في حجمه بحجم كعب حذاء، ويتزي بلونه... ألقت الحجر بعيدًا، وعادت تقول:

- الوقت، لم يبق لدي متسعٌ من الوقت...

كأنها كانت تستشيره في فكرة الذهاب أو البقاء، ولم يعلّق...

انهمك من جديد في مسح مساحة أوسع من مكان عثرتها، وافترض أن الكعب قد انكسر قبل سقوطها بخطوات، وقال لنفسه هامسًا:

- كم خطوة؟...

لم يتبيّن جوابًا محددًا دقيقًا من روحه... فقط عليه أن يخرج من حقل هذا البحث إلى مسار قدومها، ربما خطوة أو ثلاث أو خمس، وربما أقل.. هو مفتوح على احتمالات شتى ليحلّ المشكلة، وفي مكان ما سيكون الكعب في انتظار يد تلتقطه، راح

يمشي محنيًا جذعه متفرسًا في الأرض، وأحيانًا كان يزيح بعض الأحجار والأوساخ برجله، لعلّ الكعب يطلع من بين ركامها، لمحت كدّه وجديته، فعلّقت آخر آمالها على ما يقوم به، ورغم هذا النّهب من الوقت الذي يعصف بها، وهذه الخيبة الصباحية التي لم تكن في الحسبان، فقد ابتسمت في داخلها... بسمة رضا أو زهو أو سعادة... هي نفسها لا تعرف مبعث بسمتها، أما هو فقد بدا من حركته وكأنّ اليأس قد تسلّل إلى قلبه، ليس ثمة دفقة أمل تناور على وجهه، إلى أن رفع قامته فرأى بقايا بسمة على وجهها، عاد يقول:

- يبدو أنه لا أمل...

ضحكت بحرارة صادقة، راحت تقترب منه، فأضاف:

- لقد قمنا بما يجب القيام به...

قالت بحنو:

- أعتذر أني ورّطتك في مشكلة لا تعنيك.

نعم لم تكن تلك مشكلته، ولم تكن تربطه بالمرأة أية علاقة تذكر، مجرّد مصادفة صباحية عمياء، على هامش رصيف.. بدا الأمر كما لو أنه حالة حلم، وتنبّه لوجودها من جديد وهي تحمل مشط الحذاء في يدها:

- المشكلة أنك حافية...

- لم يبق لي وقت للبحث.

سحب كمّ معطفه، نظر في الساعة:

- لك عذركِ في التأخير.
- ليست مشكلتهم أيضا.
- فما الحل؟!...
- لا أعرف...

استندت إلى جذع شجرة برتقال نابتة على الرّصيف، جالت ببصرها في الأرجاء، لا أحد غيرهما... الطريق ممتدة بكمال كسلها، بعض الأتربة والغبار راحت تلهو به يد الرّيح...

* * *

بعد نصف قرن من الزمن، وقف رجل عجوز على باب محل أحذية نسائية يتناهبه الخجل متسائلاً:

- هل أجد عندكَ كعب حذاء أبيض؟...

رد البائع من دون أن يتطلّع إلى وجهه:

- كعب الرِّجْلْ اليمين أو اليسار؟...

لقاء في الخريف

- لا تنظر خلفك...

صكّ الصوت المتهدّج سمعي، بدا كأنه صدر من لسان واقع تحت أثر التخدير، رغم تحذيره، فقد التفتُّ متطلعاً إلى مصدره:

- أنت؟!..

طالعني بوجه باسم، سلّم بحرارة تليق بمسافة الغياب، ثم قال وهو يعود إلى كرسيّه:

- يااااه عمر...

- هي الحياة.

- أين اختفيتَ؟

- غيّرتُ مقر عملي.

هز رأسه هامسًا:

- كل شيء تغيّر، سبحان مالك الملك.

بدا على وجهه بعض الحنين لأيامه الخوالي، يوم كان الآمر الناهي، أشرقت الذكرى بصرخته من تحت ركام الماضي - حجّار يوَقَّفْ القطاع على رَجَلْ -

نعم هو ذا الرّجلُ بكامل حنينه وعجزه ومرضه وهرمه وتعثّر

لسـانه، لم يبـق منـه إلاّ أضغـاث سـلطة وسـطوة وحـزم..

- تشرب قهوة؟...

أومأتُ للنادل، وعدتُ إليه:

- كيف الحال؟..

- كما ترى.

- أنتَ بخير.

جاء النّادل بقهوتي، فيما طلعت منه ضحكة مكابرة، وهو يقول:

- أولاد الكلب ما يقرّ فيهم الخير...

- المهم أنك بخير.

نظر إلى الأفق، اغرورقت عيناه بدموع قهر، وتساءل:

- كيف لفّقوا ذلك التقرير؟!...

- هوّن عليك... لا شيء يستحق...

لفّنـا الصمـت، وتقافـز إلى آذاننـا ضجيـج المقهـى، نعـم كل شيء تغـيّر... السـنوات سريعـة كالرّيـح، أدبـر الشـباب مخلفًـا للهـرم وقته، تلاحقـت الأحـداث سريعـة فوضويـة، وتـسرّب المكـر للحيـاة في غفلـة مـن الأحيـاء، فغـيّرتُ مقـر عمـلي، وبقـي متمسـكًا بزمـام منصبـه، محـركًا كل شيء وفـق مـا يريـد، فيـؤذي أحيانًـا، ويصفـح أحيانًـا أخـرى.

كانـت تلـك طبيعتـه التـي جُبِـلَ عليهـا، سرعتـه في الأذى ورغبتـه في

الصفـح، ثـم نسـيانه، نسـيانه لـكل شيء، لخـيره وشرّه، كان يرسـم باندفاعاتـه تلـك مـن النقيـض إلى النقيـض، صـورة محـيّرة ووجهًـا لطبيعـة نفسـية لا يمكـن فهمهـا أو مجاراتهـا، لذلـك فقـد كان الحـذر منـه هـو السـلاح الأجـدى والأقـوم للمواجهـة، ومنـه فقـد حـذروه، وأضافـوا إلى حذرهـم ذاك عامـل الوقـت ليتسـلّلوا إلى فهمـه، وليدركـوا في النهايـة نقـاط ضعفـه وحجـم أخطائـه، ثـم يوقعـوه في الـشّرك...

يجالسـني اليـوم دون أن يخالجـه شـعور بمحاولـة حيـاة مضـت مـن خـلال وجـودي، يسـتمتع بـروح الذكـرى متناسـيًا حـاضره متعزيًـا برائحـة كـوني جـزءًا مـن ذلـك المـاضي، فقـد زاحـم الفـراغ حـاضره، وانكـسرت شـوكته، وتراجـع حضـوره، وهـو يلـوم نفسـه ويعتـب عليهـا بـكل القسـوة...

- كيف فعلوا ذلك؟...
- هذا ما يحصل دوما، لكن الحياة لا تتوقف..

لوّح بيده مبعدًا دخان سيجارتي، ونبس:

- هات لي قارو...

قالها بلسانه الثقيل وضحكته الرنّانة، وهو يضيف:

- جاءتني الإقالة من الوزارة...
- سمعتُ بالأمر.

- وقبلهـا تعرّضـتُ للتحقيقـات القضائيـة، ولم أجـد سـندًا لي...
- كان الوضع قد خرج عن السيطرة.
- وداهمني المرض...

* * *

ثـم راح يتماثـل للشـفاء، مـع الوقـت لم يبـق مـن آثـار تلـك الحـوادث غـير هـذا البيـاض الـذي غـزا شـعره الخفيـف، وهـذا التلعثـم الـذي يرافـق كلماتـه كلـما تحـدّثَ كأنـه واقـع تحـت ثقـل تخديـر الأدويـة، رغـم ذلـك فهـو لم يفقـد حرارتـه بحـبّ نفسـه، ولا انطفـأت جذوتـه في احتضـان الآمـال، أقبـل عـلى الحيـاة بفرحـة طفـل يقبـل عـلى يـوم عيد.بـدا لي كأنـه عـصيٌّ عـلى الكـسر أمـام نوائـب الدنيـا، فسـألته بدافـع الفضـول:

- ماذا تعمل الآن؟...
- بعـد أن ثبتـت بـراءتي فتحـتُ مكتـب حسـابات، ووجّهـتُ اهتمامـي إلى أسرتي الصغـيرة...

ثم اشتعل وجهه ببسمة دافئة وأضاف:

- الأسرة هـي كل مـا يبقـى لنـا، حاجتنـا إلى الأبنـاء، مـن

دونهم تبدو الحياة شاحبة إلى أبعد حدّ.

واستغرق في تأمله الطويل، كأنه يخترق الحجب ليرى الآتي من أيّامه.

أشجار عارية

قلتُ لها بقلب مفجوع:

- لن أصدِّقكِ..

وارتفع صوت ارتطام الباب، أغلقته خلفها بعصبيّة، ثم اختفت...

بقيتُ أفكّرُ فيما لو كنتُ قد تسرّعتُ في سؤالي، هل يبدو الأمر كاتهام يفسد كل شيء؟.. لكنّي أقول إنّ الأمل موجودٌ وحيٌّ، وبإمكاننا أن نعود من جديد.

ثم حملني الفراغ الذي راح يملأ المكتب على التفكير في وحشة النهاية، تجاذبتني الهواجس، ووقعتُ فريسة لخيالاتي...

نظرتُ حولي فبدت الدنيا تغرق في صمتها وشحوبها، ولكي أتغلّب على قلقي، وجدتني أهمس:

- الاعتذار من شيم الكرام...

فأيّنا يعتذر للآخر؟.. وأيّنا الكريم؟.. وقد اشتعلت النّار وراحت تحرق الأخضر واليابس، وها نحن نتفرج عليها حينا، وننفخ فيها بلا مبالاتنا أحيانا أخرى...

أما اللقاءات التي جمعتنا، فلم تزد إلاّ على توسيع الصّدع،

يستفحل الغضب، وتثور الأعصاب، وتُسْتَنْفَرُ العضلات، وتتحشرج الأصوات.. لا يدع أحدنا للآخر مجالاً، فيسقط الفهم والرّوية، ويعلو الجهل والتسرّع، وتقول بصوت عضّه البكاء:

- إلى متى؟...

الحقّ أني لا أعرف، ولا أملك القدرة على الإجابة، وفي صمتي تشتعل أكثر، فيخفق قلبي...

- قل شيئًا...

أعرف أنّ أيّ قول لن يسوّي المسألة، فألوذ بالصمت منتظرًا حمم ثوراتها..

- يبدو أنّه لا أمل.

فأقول بصوت مكلل بالإرهاق:

- تكرّرت زياراتي للطبيب...

وماذا بعد؟... لا شيء يلوح في الأفق، تبدو نتائج التحاليل سلبية إلى الحدّ الذي تلجمني فيه الدهشة في كل مرة.

ثم اقترح بعض الأصدقاء الذين أدركوا فاجعتي، وشاركوني غصّتها، تجريب نوع آخر من التطبيب، فصارحتها بما تنطوي عليه النّية، وما أبيّته من أمر.. فقالت:

- جرّب...

- بتُّ أخشى نتيجة ما أقدم عليه.

فكشفتْ عن شعور عميق زاخر بحاجتها إلى الأمومة، هامسة:

- لن نخسر أكثر مما خسرنا...

وكان عليّ أن أركب هذه الطريق، وأن أصدع للفكرة رغم عدم إيماني بما أقدم عليه، فقد رميت مقاليدي إلى أمل غيبي، وأمنية بتُّ أتصوّرها ثمرة في متناول الغد القريب، وزادت من عزيمتي قدرتها على الإقناع، ولهفتها المشتعلة، وحرصها الدائم على إتمام هذه المهمّة بالجهد والقدر اللذين بقيا لنا..

وبدأتُ أسأل وأتحرّى في هذه الطريق التي اخترتها، كأنني أرفض الاستسلام أو القعود عن طلب أمر يبدو وراء الأفق، وفي أحيان خيّل إليّ أنّني أدفع بنفسي باليأس إلى اليأس، تشحنني رغباتها وهمسها وعطفها الذي فاض عن الحاجة، وكلما أوغلتْ في الحنان زادت عذاباتي الداخلية، وكثيرًا ما همستُ لنفسي:

- هل أستحقّ؟..

فتطفئ جمر سؤالي الداخلي العاصف، بماء قبلة، أو بضحكة صافية، أو بحركة أنثوية لذيذة، أو بغمزة مقصودة، ومع الوقت، وفي طول الليل تعاودني حرائق الأسئلة:

- هل أستحقّ؟..

أنا الذي أقرأ في ملامح وجهها تلك الرغبة اليتيمة والتي تحرص ما وسعتها القدرة على كتمانها، ونحن نتابع حركات وضحكات

الصغار كلما وضعتنا الظروف أمامهم.

وفي فوضى الخوف واليأس بدا كأن رغبتي تتراجع، وحاجتي إلى الأبوة تتخفّى وراء تلال حاجتها إلى الأمومة، إذ اكتشفتُ في النهاية أنّ نفسي لم تعد تعنيني بالقدر الذي تعنيني هي، وأنّ كل خوف، وكل شوق، وكل حاجة وكل أمل إنما هو لأجلها، لحاجة روحها ولمعنى وجودها، وأنّ هذا السعار المحموم الذي يحملني على تجريب ما لا أؤمن به هو هذا الخوف الفاسد الأعمى الذي راح يتكاثر في أعماقي...

- جرّب... فلعل الله يرزقنا...
- سأرى ما يجب فعله.

ثم تقول وكأنها تزيد جرعات طمأنينتي:

- مازال أمامنا الوقت الكافي...

وتغريني بالأمل أكثر فتضيف:

- من حسن حظكَ أنّ العمر لم يتقدم بنا...

وفي سرّي تنفجر براكين العتاب، ليس الأمر بيدي، فما أحوجني أنا أيضا إلى طفل يملأ وحشة هذه الحياة، ويغذي جوع هذا العمر، ويعصف بقلق الخوف...

لأجل كل هذا فأنا لا أتوانى عن التجربة، حتى في ظلّ كفري بهذه الطريق الغيبية التي اخترتها بديلا عن يأسي مما ذقته من

الفشل المتراكم على أيدي الأطباء...

ومشيتُ في هذه الطريق، نظرتُ حولي، ابتسمتُ بمرارة العاقل، قطّبتُ جبيني من أثر تعب مزمن...

لا شيء تغيّر...

هي...

أنا...

ولا ثالث لنا غير الوحشة والخيبات، وتضاعف قلقها، فانتابني العجز، وبحلق مالح قلتُ بما يشبه الهمس:

- لا أمل...

فتحرّش جرح الخريف بأشجار العمر، بكت بكل صخب الطفولة والفقد، ولكي أمسح غشاوة الضياع عنّا، قلتُ دون تحسّبٍ للقادم:

- أيسعدك العيش بعيدًا عنّي؟...

وغرقت في صمت أعمى، فعدتُ أسأل من جديد:

- هل لنا حل آخر؟...

- الطلاق.

فقلتُ بقلب مفجوع:

- لن أصدِّقكِ...

وارتفع صوت ارتطام الباب، أغلقته خلفها بعصبية واختفت،

فيـما وصلتنـي أصـوات وأهازيـج صبيـة راحـوا يملـؤون الدنيـا بلهوهـم...

المهمّة

قال بصوت هامس:

- عليك أن تستعدّ...

نظرتُ حولي في الظلام فلم ألمح شيئًا يدل على وجوده. بدت أنوار بعيدة مهتزّة في آخر الشارع، وسمعتُ حفيف أوراق الأشجار، ثم شعرتُ بالنسيم المتسلّل في العتمة، غير ذلك.. فأنا لم أعرف لمن كان الصّوت، ولا حتى معناه، لكنني أدركتُ أنني لم أفقد الوعي بعد، ولا كانت وساوس سُكْر.. نعم أعترف بأنّه مجرّد همس، لكنه بدا واضحًا، ذلك الهمس الذي ينفجر في مساحات الصّمت فيقنعكَ بسماعه، ويجعلك تؤمن بأنّ أحدهم تبعك تحت جنح الظّلام من دون أن تحسّ به، ثم فاجأك بحديثه واختفى في لمح البصر قبل أن تشحذ حواسك لمعرفته.

لم أستسلم للظلمة، فقد درتُ حول نفسي، ووقفتُ بلا حراك، تطلّعتُ إلى ما وراء الأشجار التي اصطفت على جانبيّ الطريق، وأطلقتُ ندائي:

- مَنْ هناك؟!..

لم أسمع ردًا، فقط صدى صوتي وهو يعود حاملاً خيباتي، وجوع الفراغ والعتمة.

لم يكن ثمة أحد إذن، فلا وقع أقدام، ولا ضجيج عابر، ولا حركة تنبئ عن أيّ كائن.. كنتُ وحدي بتمام الوعي واليقظة والحيطة وحذر السير ليلاً، وكان الصّوت الهامس قد بدا كطلقة رصاص واحدة، حادّة، قاطعة في حقل الصّمت، وبيني وبين نفسي رحتُ أتساءل.. الاستعداد بِمَ؟.. ولمن؟.. فأنا بلا أعداء ولا أصدقاء، لا مشاريع لديّ، ولا حتى آمالاً.. أنا فارغ من كل ما من شأنه أن يدعوني لكي أستعد، ريشة من جناح طائر تتقاذفها ريح الأهواء في دنيا الله. هذا هو كل المعنى الذي أملكه، والذي أكونه لا أكثر... ففيمَ وجه الاستعداد؟.. وعلام؟.. وإلام؟.. والصوت تدلّى أمام سمعي كما يتدلّى خيط البرق في أفق معتم، بدا واضحًا، كاملاً، متناغمًا..

لكن أين صاحبه؟!...

في الظّلام الكامل أقنعني بوجوده، أقنعني وأنا بيقظتي أو خُيِّلَ إليّ أنني بيقظتي، فقد شربتُ كثيرًا، لكنني أعرف قدرتي وجلدي واحتمالي.. ربما داخلتني نشوة ما، أقول ربما.. لكن ليس من الممكن أبدا أن تفتحني على هذه الهلوسة المبكرة، وتفقدني وعيي بواقعي أو تبدي لي أشياء منافية لمنطق هذا الواقع..

ومن جديد عدتُ أصرخ في الظلام:

- هل من أحد هناك؟...

بنفس الصّدى عاد الصّوت بكامل خيبته وخسارته..

لا أحد...

لا صوت...

عتمة وحفيف أوراق أشجار، أضواء بعيدة مهتزّة في آخر الشّارع لا تتيح لي تبيّن الأشياء، استدرتُ ناحية الطّريق التي جئتُ منها.. لم أبتعد كثيرًا عن الحانة، حتى أنّ ضوء بابها المسفوح ما زلتُ أراه...

- أيّة خيبة هذه؟...

وحدي في قلب الظّلام والصّمت، وأحد ما لم أتبيّنه، ألقى إليّ بأمره.. جاءني بلا حركة، كأنّه محمول على صوت الرّيح، ثم مضى سريعًا.. لم يترك من أثره غير صوته، وباليقين الكامل سمعته، وبنفس اليقين عرفتُ بداية تداعي الأشياء من حولي.. كأنّ الخدر يمسّني بلمسات حانية مفاجئة، فأرى الأشجار من جديد باهتزاز أغصانها وحفيف أوراقها، وأرى الطريق الفارغة القفر في سيل الظّلام، ويباغتني شعاع الضوء البعيد في آخر الشارع...

بدت دنيا جديدة، حالمة، مسكونة بالهدوء التام، لم يعد

الصـوت مشـكلتي، فلتـأتِ آلاف الأصـوات، والصرخـات، والنـداءات، والأوامـر.. لم يعـد يعنينـي شيء مـن ذلـك، بـتُّ حـرًا مـن كل مـا يكـدّر الصفـو، ويربـك الـرّوح، ويثـير السـمع، وهكـذا راحـت القـوة تنبـتُ فيّ، ألهمنـي الوقـت كل هـذه السـطوة الفارعـة التـي احتشـدت في دمـي وسـالت في أعصـابي، بـل إنّي وجـدتُ نفـسي أقلّـد الصـوت غنـاءً..

- عليك أن تستعدّ...

كنـتُ أغنّيـه بصـوتي النشـاز المتفلّـت مـن لسـان هـدّه السـكر، وأطلقتـه النشـوة مـن عقـال خوفـه. تـردد صـوتي مالئًـا الليـل، داكًا الظلمـة، موقظًـا الصمـت، كاسرًا الكسـل، واكتشـفتُ أنّ بيـدي زجاجـة، كأنّ بعـض الوعـي قـد دلّنـي عليهـا، أدرْتُ قفلهـا المعـدني، وسـمعتُ صـوت زبدهـا وهـو يشـخر، فقلـتُ ضاحـكًا:

- ذبحتُ الزجاجة...

وشربتُ...

شربـتُ مـن جديـد غـير آبـه بالليـل والنـداء، مـلأت الطّريـق بوجـودي، ومـلأت العتمـة بإشـعاع خفـي يتقاطـر منّـي، بإمـكاني الآن أن أرى الأشـياء وهـي تمتثـل لبـصري، نعـم باسـتطاعتي أن أحـدّد الأشـكال، والإنسـان والألـوان، بمقـدوري أن أعـرف... ورأيتُ...

رأيــت الطّريــق والأشــجار والأضــواء، ولم أر أحــدًا يتحــرّك في الجــوار، إذ لم يكــن ثمــة أحــد...

عــدتُ أرفــع صــوتي بالغنــاء مــن جديــد، وأدور حــول نفــسي، وأبتســم للفــراغ، وأشرب..

أهملــتُ الصّــوت الطّالــع مــن المجهــول، إذ رأيــت أنّ لا معنــى لــه، صــوت ســال مــن ينابيــع العــدم فلــم يــرو فضــولي الكامــل، أكــرّر لنفــسي.. أنــا بــلا أعــداء وبــلا أصدقــاء وبــلا آمــال.. فلــمَ انفجــر الصــوت فيّ كلغــم لا نتوقّعــه في أرض خاليــة...

الزّجاجــة في يــدي، وقبــل هنيهــة ســمعت الرّنــين الــذي تــآكل في ظلمــة إسفلت الطريــق، تدحــرج القفــل المعــدني مخلفًــا وراءه صــدى صــوت أطــرب روحــي، ووجدتنــي أرهــف الســمع بخشــوع كامــل، أحسســتُ كأني محمــول عــلى جنــاح النسـيم فيــما أغصــان الأشــجار تتــماوج برؤوســها تحــت آثــار الضــوء، لبســتني النشــوة بســعادتها الفاتنــة، حتــى تــراءى لي ضــوء الحانــة المســفوح مــن بعيــد، ثم قــدّرتُ كأنّ ظــلالاً بشريــة تتحــرّك عنــد بابهــا..

جرعــتُ آخــر مــا بقــي في زجاجتــي، قذفــتُ بهــا في الهــواء، وركبتني غوايــة العــودة، فقــد كان اللّيــل في مســتهلّه.. عــليّ إذن أن أســتعدّ لحــربي مــع الفــراغ بالــشرب مــن جديــد، وكفراشــة مهووســة بالضــوء رحــتُ أرفــرف عائــدًا إلى مصــدر الشــعاع، فُتِنْــتُ بالأخيلــة والظــلال

المتراقصة تحت شلال الضوء، فُتِنْتُ بالصمت النازف حولي، لا شيء غير وقع حذائي على الإسفلت، وظلمة، وحفيف أوراق أشجار يشتعل ثم يخفت، وأنا أعود إلى حربي الطّاحنة بأتم الاستعداد...

حين استويت جالسًا استند بمرفقيه على طاولتي، اقتربَ منّي بالقدر الذي يسعفني من سماعه، وقال:

- واش نجيب لك؟...
- ثلاثة بيرة...

حمل زجاجات فارغة واختفى في الجلبة، أشعلتُ سيجارة وأنا أقرأ آثار حركات الشفاه وسط هدير الأصوات المتلاطمة، وأتطلّع بنشوة انتظار..

عليّ أن أستعدّ إذن للقادم...

تململتُ في مكاني، بحثتُ بعينين متعبتين من وراء ضباب الدخان عن أي شيء يقتل هذا الفراغ المتوحش بداخلي.. لا أعرف أحدا.. لا نديم تلفظه يد الصدفة، وكالعمى بدت الدنيا، اتصلت بشربي من جديد كي أهرب من نفسي، ومن الاستعداد الذي أوحى لي به الهمس، حاولت أن أنشغل بأصوات الرّواد مسترقًا السمع إلى حواراتهم المتداخلة فلم يغنني ذلك عن فواجعي، وابتلعتني الهواجس بأصوات قديمة صارمة:

- متى سيحصل على عمل؟...
- لا يناسبني عمره، فهو في عمر والدي..
- لِمَ تأخر في زواجه كل هذه السنوات؟..

كنتُ أبتلع الغصّة، وأشرب مرارة الأصوات، إذ لا إجابات لدي، وقال يسألني:

- هل لديك بيت؟..

غشيني الصمت ففهم كل شيء، وعاد يواسيني:

- لا مشكلة هناك الكثير من الناس ممن يعيشون مع أسرهم، ولكنني كنت أحبذُ لو كان لك سكن مستقل فهذا ييسّر أمر قبولها...

ضحكتُ.. كما أضحك الآن، وحبستُ دموعًا ناورت في جفنيّ، ذكّرته بضياع الفرص وعقم التجربة، فعاد يعلّقني بالأمل من جديد:

- لو كان لك ولدٌ واحدٌ لتغير حال الدنيا...

ثم راح يمعن في ذكر حسنات الحياة ويعدّد مزاياها، وانسحبتُ إلى قاع الذكريات أتلمّسُ طريقي إلى شعاع خفي... جمار الحبّ القديم وهي تتوارى وراء رماد سوء الحظ والوقت.. كم استفحل العطش فيما تركتْ لي من صحرائي الباقية؟.. وقلت وأنا أتعثّر بواقع الحانة:

- هل هناك مهمّة واحدة تستدعي الاستعداد؟..

وبامتداد الليل امتدّ شربي، فتكشّفت الحياة عن كل ما فيها، كبرتْ الرّغبة في البحث عنّي، وتطاير في سماء الصمت صراخه:

- عليك أن تستعدّ...

صدعتُ للأمر صاغرًا من دون أن أفتش عن مصدره، فقد كانت المهمّة ضرورة وواجبًا، فصرختُ بلسان غالبه السّكْر:

- أنا على أتم الاستعداد...

ثمن الحياة

لم يعرف عن المرأة أكثر من كونها أنثى أوقعه الليل عليها، أمّا وقد أصبحَ فقد نسي كل شيء..

مضى إلى عمله بفتور، ساعات نومه القليلة التي قضمها السهر، الجهد الذي يبذله في السعي إلى أعماق النشوة المشتعلة، التجارب المرّة التي لا تُكْسِبُ خبرة بالحياة، ثم هذه العصبية والتوتر والانفعال الذي يظهر عليه من أقل مثير...

راقب الزملاء بعين خاملة، وتمنّى في قرارة نفسه أن لا يصيبه منهم سؤال أو طلب أو حاجة، لم تكن به رغبة للحديث ولا العمل، ولم يزد في رده على سلامهم الصباحي المعتاد إلاّ بهز رأسه، وتمتمة باردة لا تكاد تُسْمَعُ، تكوّر في كرسيه، لفّ ياقة الجاكيت حول رقبته، ثم خلد إلى الصمت، كأنما يريد أن ينفي كل حركة فيه، فيتحوّل مع الوقت إلى جماد.. لكنه لا يتحوّل، فالمثيرات كثيرة، والأصوات متفاوتة النبرة، والضجيج يعلو وينخفض، وهو ما يمنحه غفوة متقطّعة تزيد في تعبه وتجعله أكثر التصاقًا بكرسيه.

يستمر هكذا في ساعات صباحه منهوبًا بين غفوة وصحوة،

مستسلمًا لثقله وتعبه وفراغ الإدارة من العمل، فحتى زملاؤه متورطون مثله في عقم هذا الفراغ الذي يحتالون عليه بنكتهم وأحاديثهم المختلفة في السياسة، والحياة، وقراءة الجرائد، والتدخين، وحلّ الكلمات المتقاطعة، وهم يتحاشون الحديث إليه، لأنّ طبيعته عوّدتهم على عدم ردّه أو ردّه في بعض الأحيان بكلمات قليلة مقتضبة لا تشجّع المتحدّث منهم على مواصلة حديثه.

لهذا السبب أهملوه، خلّوا بينهم وبينه، ومع الوقت والتعوّد شكّلَ عالم عزلته وصمته ذاك، وأثث ساعات وجوده في العمل بهذه الرّاحة التي يعوّض بها ساعات سهره، ويبني بها طاقة استعداده لليل جديد، حيث يمضي بكامل حياته وشغفه وقوته إلى أبعد مدى، وحيث يحسّ وكأنّ الله قد ألهمه هذه الطاقة الحيّة ليقدر على مقارعة الليل، ومناورة الظلمة، وإشعال ما يمكن إشعاله مما انطفأ نهارًا.

يستعدّ ببدلته السموكن الرّمادية والوحيدة التي يمتلكها، وبربطة عنق باهتة، وحذاء يحرص على تلميعه، يصفّف شعره الكثيف بعناية، يتعطّر، ثم ينحدر في طريق الكورنيش مستسلمًا لهبوب نسيم البحر، متأملاً أضواء الشارع المسربلة، يدندن بما طاب له من الأغاني، ويلتقط بعينيه ما يتحرّك حوله، يدخّن

أحيانًا، وكثيرًا ما كان يتوقف منتحيا ركنًا على الرّصيف، يُخْرِجُ من جيبه منديلاً، ثم ينهمك في مسح حذائه حرصًا منه على الوصول إلى مقصده بكامل أناقته.

وكان يصل أنيقًا، يتبدّى تحت ضوء الباب الخارجي وهو يقرعه متلهفًا ببهاء حماسه، حتى يتناهى إليه صوت أنثوي ناعم:

- أشكون؟!...

- عوني...

يُفْتَحُ الباب، فيطل وجه دافئ كلّله الضوء بإشعاع سرّي، ثم تعلو ضحكة رنّانة لذيذة، ويسأل وهو يخلع فردتيّ الحذاء:

- الجماعة هنا؟...

- أنتَ آخرهم...

يبتسم ابتسامة فرح، وتقوده إلى الصالة القابعة في طرف المبنى حيث تعوّدوا اللقاء، تتناهى إليه أصواتهم، صخبهم، ضحكاتهم، فيشتعل إحساسه بكمال الحياة وقوة اليقظة، يصرخ وقد صار بينهم:

- طلع النّهار...

فيضجّون بالضحك...

هنا تدبّ الحياة، تتقد الرغبات، تتطاير الأهواء، تكتمل الرّعشات، تنفلت الألسنة، تتورّط الأيدي، تجمح الأجساد،

تتلاقى الأعين، وتندلع الحرائق في خصب فوضاها، فيقول وهو يحمل كأسه الأولى:

- الليل أنثى...

تهجم أصوات وراءه:

- في صحّة الأنثى...

يجرعون كؤوسهم بحبّ كامل، وبلهفة تسيطر على أعصابهم كأنما خُلِقُوا لهذه اللذة، فيبعثون حرارة حياة، ومعنى كون، وقيمة حضور..

ويسأل أحدهم بمكر:

- لكننا لا نرى الأنثى؟...

فيتطوّع هو بالإجابة:

- لأنك أعمى...

تعلو الضحكات من جديد، يصفو الجو للنكت والمناوشات وبعض الغزل، ثم يتشعّب الحديث إلى الأعمال والسياسة ووضع البلد، فتتحوّل السهرة إلى شبه ندوة تُدَارُ بعفوية كاملة، بروح المرح أحيانا، وببعض الغصّة أحيانًا أخرى، فيخرج عن صمته:

- الأحزاب بنت قحبة..

- والنظام أقحب منها...

ويعلو صوت أنثوي مقاطعًا متسائلاً:

- والشعب؟...

فيضحك وهو يقول:

- لا يمكن فهم هذا الشعب..
- أإلى هذا الحدّ؟..
- وأكثر.

تملأ كأسه من جديد رغبة منها في تدليله أكثر، وتهمس بصوت ناعم:

- اشرب وانسَ، فالسياسة تعكّر الصفاء...

يصرخ بحسرة الخسران:

- يااااااااه ما أروع الحياة لو كانت بلا سياسة.

ثم يهبّ واقفًا مستنفرًا الانتباه إليه:

- تخيّلوا حياة بلا سياسة، ولا أحزاب، ولا نظم، تخيّلوا حياة مترعة بالخمر والسهر والأنثى.. أيّ نصر عظيم سيكون قد حققه الإنسان...

فيقاطعه صوت من أقصى الطاولة:

- بل تخيّل حياة بلا حياة...

يضحك حتى يكشف عن فرح طفولي، ويقول:

- ولماذا أتخيّل؟... فنحن نحياها، ما نعيشه اليوم هو حياة بلا حياة، أقصد أنه موت في الحياة أو حياة في الموت...

وتخفت الأصوات من جديد، يعود الهمس والشرب والغزل والغمز، يدبّ في الأجساد خدر التعب والكسل، فتنجرف إلى الجموح بقيد الرّغبة، ويتبدى اشتعال الحياة في أوجها، الكأس والأنثى وجدلهما، هو لا يعرف عنهما إلاّ ما يوفراه من إسكات مؤقت للرّغبة، وإطفاء آني للعطش، وسدّ محدود للجوع، فليستغل إذن كل جرعة من دم الليل، ومال على أذنها هامسًا:

- بكم تكلّفني الليلة؟..

أوجعها سؤاله، فانتفضت كمن مسّته لسعة، عاد يربّت على فخذها مهدئًا:

- لا عليك.. أعرف أنّ السؤال في غير محله، لكني لا أريد أن نقع في عدم وفاق فنخسر هذه الصحبة...

وأومأت برأسها أنها تتفهّم ما يرمي إليه، وأنّ نيّته لا تتجاوز حدود الخوف على هذه الصحبة، وإنْ كان هناك من عتب، فلتعتب على نفسها وعلى ما قادها الليل إليه. ولكي ترأب هذا الصدع الذي خلّفه سؤاله قالت:

- لا يهم ... لن تكلّفك ليلتي سنتيمًا واحدًا...

ففهم الأمر على وجه الإشفاق، وهبّ من كرسيه واقفًا وهو يردد:

- لا... لا يمكن...

فعادت تهدئ من روعه:

- إن كنتَ مصرًّا فإني سأقبل منك هدية...

وأطلق ضحكة علت على كل الأصوات حتى غالبه السعال، وهو يقول:

- ولكني لا أفهم في الهدايا...

واستسلما من جديد للقواعد التي تحكم لذتها، فهي له ليست أكثر من أنثى، وهو لها ليس أكثر من ذكر، ذابت شجون الجميع في الهذيان، وكشفت الحياة عن أعمق ما فيها، إلى أن تساءل وهو يتوسّد صدرها:

- ما كان للحياة أن تكون لولا الإثم...

ثم أضاف دون أن يحفل بسامعيه:

- المعصية هي الأصل...

وأربك نفسه بسؤال مناقض:

- فكيف نطيع الرّغبة؟!...

وجرع من كأسه وتجشأ مضيفًا:

- كل أسرار الحياة في المعصية والطاعة...

وهمست في أذنه متمّمة فكرته:

- والسياسة....

فقهقه وهو يلف خصرها بين يديه:

- وأنتِ...

وأطاعها في جنونها، فقادته إلى الظلمة، وهو يسأل:

- كم سأدفع ثمنًا لهذه الحياة؟...

المحطّة

الرّجل في المحطّة ينتظر موعد الباص، رنت امرأة إلى آخر الطريق وقالت:

- قد يتأخر في المجيء..

هز رأسه بتوتر ظاهر، فقد تعب من انتظاره الطويل، وتنهدت المرأة بلا سبب.. هبّت ريح، تلبّدت السماء ببعض الغيوم، بدا كأنّ الجو فصل خريف..

تحت سقف المحطّة كانا يجلسان على كرسيّ حجريّ. أمسك كل منهما بحقيبته، سألته بعفوية:

- هل تعتقد أنها ستمطر؟

- أظن ذلك..

- أنا أحبُّ المطر، وأنتَ؟..

- لا أعرف...

نظرتْ في عينيه لعلها تتعرّف فيهما إلى إحساس معيّن، فوجئتْ بهذا القلق الناتئ في نظراته، فسألته:

- هل تأخرتَ عن موعد معيّن؟..

أجاب دون أن يحفل بها:

- لستُ أذكر أنّ لديّ موعدًا.. لكن ....

وصمت كأنه يبحث عمّا يعينه على إكمال جملته تلك.

هل يبدو وراءه موعد؟!...

هو نفسه لا يعرف، ولا يذكر، ولا يفهم. ثم همس من جديد:

- إني أتساءل.. لماذا جئتُ إلى المحطّة؟...

- للسفر.

- إلى أين؟!..

قالت بحسرة:

- ألا تعرف وجهتك؟..

- وهل تعرفين وجهتكِ أنتِ؟..

أومأت برأسها، وهي تنبس:

- نعم أعرف..

تساءل بعصبية:

- فكيف أجهل أنا؟..

زاد تكاثف الغيوم، امتدت خيوط البرق الأولى، تحرّكت رياح، وسُمِعَتْ دمدمة الرّعد قادمة من وراء سواد السماء، فقال:

- أعتقد أنها ستمطر فعلاً..

مدّت يدها الصغيرة البيضاء خارج المحطّة، وأعادتها مبلّلة:

- إنها تمطر...

لاذ بالصمت، راح يفكّر في موعد الباص، ألقى نظرة على ساعته، بدا له كأنّ الوقت لا يتحرّك، وقالت هي:

- ما أجمل المطر... يذكّرني بالحياة والحبّ..

سأل ببراءة:

- إلى أين سأسافر؟..

فقالت بلا تفكير:

- إلى وجهتكَ.

- لا أذكر أنّ لي بيتًا أو أهلاً، لا أعرف إن كنت سأقصد صديقًا أو مدينة.

- خروجك إلى المحطّة يعني سفرك.

وسألها بدافع الفهم مرة أخرى:

- نسيتُ أن أسألك.. ما الذي يعجبكِ في المطر؟...

فقالت:

- ألا تذكر أنّ لك موعدًا مع أحد؟..

- أفكّر ربما يحدث ذلك، لكني على يقين من أنّ يومي خالٍ من المواعيد..

زاد تحرّش المطر بالأرض، دمدم رعد بعيد، وناورت الرّياح، فقالت بقلق:

- لو استمر الوضع هكذا، فسنتعرّض للبلل...

هزّ رأسه موافقًا على كلامها، وخلد مرة أخرى إلى تأمله واضعًا الحقيبة على حجره، أما هي فقد راحت ترنو إلى آخر الطّريق.. بدت متبرّمة من طول الانتظار، فاستنجدت بساعتها أكثر من مرة، وعادت تسأل:

- لماذا يخلفون مواعيدهم؟..
- هناك أسباب كثيرة لا تحصى..
- بل تقاعس في العمل.
- عطب في المحرّك مثلا..
- وهو تقاعس في العمل أيضا.
- طريق مقطوعة.

فقالت بنبرة هادئة:

- نعم يمكن أن يكون هذا هو السبب الحقيقي لتأخره..
- كما قد يكون شجارًا بين السائق وأحد الرّكاب..

وسألته بحب استطلاع:

- ولِمَ يتشاجران؟..
- لا أعرف... لكن ... ربما لشيء يبدو تافهًا..

قالت مستمتعة بفكرته:

- قد يكون أغلق باب الباص بسرعة، ما جعله يصيب

ســاق الرّاكــب بــأذى...

صرخ من شدّة الألم، ووضع يده على ساقه، وهو يقول:

- هنا... هنا أصبتُ في حربي على الإرهاب...
- برصاصة؟...
- نعــم برصاصــة، ثــم سُــحِبْتُ إلى مــكان آمــن والدمــاء تنــزُّ منّــي، ومــع الوقــت تماثلــتُ للشــفاء...
- قد تكون إصابة ساقه طفيفة..
- أرجو ذلك.

عادت تقول، وهي تحرّك الحقيبة بعيدًا عن زخات المطر:

- أنت وحدك من يستطيع فهم علاقة الرّاكب بالألم.
- نعم أحسّه.

راحت تنظر من جديد إلى ساعتها، وعاد يتساءل برعب:

- أين وجهتي؟..

فقالت:

- السّادسة والرّبع..

قال بحيرة:

- أفكــر فيــما لــو أمكــن لي أن أفحــص أشــياء حقيبتــي، فقــد أتمكَّــن مــن معرفــة وجهتــي...

وقبــل أن يســمع ردًا منهــا، راح يعالــج قفــل الحقيبــة، اســتغرقتْ هــي

في بسمة مربكة، فتساءل بدهشة:

- فارغة؟!...

- نعم فارغة...

- هذا يعني أنّ....

وصمتَ...

وصمتتْ...

راحا ينظران إلى الحقيبة من جديد، وقال لها:

- قد نتمكّن من معرفة ما يجري لو عرفنا ما في حقيبتكِ . . .

- أشياء خاصة.

- أعرف.. لكن ربما يساعدنا ذلك على خيط اليقين.

استاءتْ المرأة من طلبه، بدا غريبًا، هي تعرف ما في حقيبتها، تعرف وجهتها، وهي أمور لا تعنيه بأيّ حال، أما المشكلة فهي مشكلته هو.. جهله لوجهته، ومن قلقها سألت:

- ألم يتصل بك أحد مثلا... ما دعاك إلى السفر؟...

- لا أذكر.

وأطرق يفكّر قليلاً، ثم أضاف:

- لا لم يتصل بي أحد ...

فقالت بنبرة قاطعة:

- ثق أنّ حقيبتي لن تدلّك على شيء.
- ولِمَ تبدو حقيبتي فارغة؟!...

لم تجبه، فهي لا تملك فهم ما يجري، كل ما تملكه هو الانتظار وتأمل زخّات المطر، وسماع هذه الرّعود التي تبتعد حينًا وتقترب حينًا آخر، ثم تحرص كل الحرص على مراقبة الوقت من خلال ساعتها.

وهي تعرف ما في حقيبتها...

وآثر الصمت حين لاذت بالصمت، راح ينقل بصره بين حقيبته الفارغة وانهلال المطر... ثمة خلل ما لا يفهمه...

ما الذي تحمله في حقيبتها؟.. ولِمَ بدت حقيبته عارية إلى هذا الحد؟..وأين مقصده من رحلته هذه؟...

لا يعرف أدنى جواب عمّا يعتمل في نفسه، وقد كان من الممكن أن تساعده المرأة لو تفقّد معها محتويات حقيبتها، لكنها أظهرت هذا الصّد الممزوج بالعصبية والثورة على طلبه، فبدا لنفسه كاللص، وانغمس في وساوسه وقلقه، وفكّر في رمي الحقيبة مادامت فارغة، وآثر أن يعرض فكرته عليها، فقالت:

- نعم مادامت فارغة فلا حاجة لك بها.
- لكن أليس من الممكن أن أبدو كمسافر؟..
- لا مقصد لك.

- نعم صحيح...يبدو أني سألغي سفري.

فقالت برجاء:

- ليس الآن.. انتظر على الأقل حتى يصل الباص، لنطمئن على ساق الرّاكب.

لكنه كان قد نسي أمر الرّاكب والباص، فانتظاره بلا معنى.. مجرّد هدر للوقت على هامش هذا الشارع الفارغ الغارق في المطر، وتمنّى في أعماق نفسه لو عرّفته إلى حقيقته قبل أن تمضي، فبكى ...

ونظرت من خلال طوفان المطر، وصرخت بفرح طفلة:

- أخيرًا.....

اختلط هدير موتور بصوت المطر، لم يكتب لها أن ترى دموعه أو تسمع أنينه، وقفت حاملة حقيبتها... فُتِحَ باب الباص ونزل هو يتوكّأ على عجزه، ويسأل:

- كنتُ هنا معكِ انتَظِرُني؟...

لم تنبس المرأة بكلمة، راحت تراقب هذا اللقاء بحيرة، فيما جلس الرّجلان جنبًا إلى جنب على كرسي المحطّة، وراحا يفتّشان الحقيبة بشيء من الحذر...

فشلٌ في كتابة قصة

لا يعرف من أين يبدأ، فقط لو تواتيه القدرة على كتابة الجملة الأولى أو الكلمة الأولى، يعترف بينه وبين نفسه أنه بلا فكرة، هو يحتاج للّغة فقط، ربما لشكل البداية. كلمة واحدة كفيلة بأن تدفعه إلى أقصى الحدود، كلمة واحدة تنجو من فخّ الشطب، وتتحرّر وتحرّر معها هذا القلق العاصف الذي يتقلّبُ في نفسه، ويتحدّدُ في شكل العبوس الذي كسا وجهه وتلك الحركات التي استأثرت بيديه.

لكنه بلا كلمة، بلا فكرة، وأقصى ما يحسّه هو جرح العقم وقد أشعل كل شيء فيه، وسَهَمَ بنظره، تراءى له الفراغ مندفعًا نحوه، فاستسلم لكل شيء.

شعر بثقل جسده، وسمع بطريقة ما نباح الكسل بأعماقه، وتمنى لو تسنّتْ له القدرة على الهروب، ومراوغة ذلك الشّكل الذي كان فيه، لكن أيّ شكل ذاك؟!.. لا أحد يعرف أين كان يجلس؟.. وعلامَ كان يجلس؟.. ربما كان واقفًا، وربما مضطجعًا،

وربما مقرفصًا..

أما ما يخطر على البال، فهو شكل فضاء مفتوح مغسول بضوء أبيض مشعٍّ تتضح معالمه أول الأمر، ثم لا يلبثُ أن يغرق في حلقات من الضّباب.

وسأل من يستمع إلى الرّواية:

- كالدّخان مثلا؟..

فقلتُ:

- ربما...

ساد الصّمتُ، وعدتُ إلى المكان الذي لم نتفق على فهمه، والذي حاول الهروب منه.

قلتُ بيني وبين نفسي لأتصوّر أولا أنه بلا حدود، إذ لم يكن بيتًا، ولا مكتبًا، ولا مقهى، ولا حديقةً.. إنه لا يصلح أيضا أن يكون شارعًا، أرضا قُفرًا.. ربما.. بلا شجرة.. فليكن.. ثم تتسلّطُ قوة الضّوء الأبيض، حالة إشعاع غريب يكشف كل شيء، ولا شيء هناك...

غير أني تمنّيتُ بكل الرّغبة لو كانت هناك طاولة للكتابة، وكرسيّ للجلوس...

هذا حدّ الأمنية، أما الباقي من الرؤية، فقد افتقد المكان فهمه تحت غيوم الضّباب..

- هناك يبدو هو..

قالت لي امرأة تقرأ قصتي..

فسألتُ بحيرة:

- أين؟...

عـاودتْ الإشـارة بسـبّابتها نحـو نقطـة سـوداء، تقـف بـين الضـوء السّـاطع والضّبـاب السّـائل. لم تثـرني الفكـرة بقـدر مـا أثارتنـي سـبّابتها، بـدا ظفرهـا الطويـل بطـلاء ورديّ فاتـن، حـين أقلبـتْ ورقـة الكتـاب، رحـتُ أتابـع يدهـا الصغـيرة المثـيرة، أصابعهـا بيضـاء، أظافرهـا سـلالات أزهـار تحمـل مفاتيـح الشّـبق، إغـراء لا يُقَـاوَمُ، جلدتنـي عـلى جسـدي بالغوايـة، اشـتعلتُ ففاضـت بدلالهـا أكثـر، طرحـتْ راحـة يدهـا عـلى صـدر الكتـاب مـا أتـاح لي رؤيـة أعمـق، واستسـلمتْ للتفكـير..

لا أعـرف إنْ كانـت تفكّـرُ فيّ أو في الكاتـب الـذي مُنِـيَ بالعقـم في فضـاء مفتـوح عـلى احتـمالات الفـراغ والهبـاء واليـأس. بقيـتْ لدقائـق وهـي تثـيرني بيدهـا البيضـاء الصغـيرة، وتبحـثُ عـن شيء مـا داخـل هـذا الفضـاء المرتهـن للمـوت والعجـز.

مـن جهتـي كنـتُ أدرك أنّ الكاتـب لا يتبـدّى لنـا إلاّ كنقطـة سـوداء في هـذا البيـاض، وأننـا بتنـا في انتظـار مـا سـيقول، وأنّـه مـن العجـز أن ظـلّ بـلا بدايـة.

رفعتْ رأسها عن الكتاب، وراحت تتأمل غرفتها الباردة، ثم همستْ لنفسها:

- لا شيء...

نعم لم يكن ثمة شيء، وكي ترتاحَ إلى جواب، قلتُ في آخر الصفحة:

- إنها محاولته في الخلق...

ابتسمتْ، تكلّل وجهها بفيض سماوي، فاشتهيتها وركّزتُ نظري على أصابعها، وهي تفرك أوراق الكتاب، ثم فجأة سألَتْنِي:

- إلى أين تأخذني؟!...

- إلى الإعجاب، إلى مجرّد الإعجاب بي..

ضحكتْ وقالتْ:

- ثم ؟..

- لا أعرف، ربما تلك هي أقصى سعادتي..

- لكنكَ لا تقول شيئًا؟..

قلتُ بمرارة:

- هو سيقول...

انفجرتْ ضاحكة:

- أنتَ قتلتَ نفسكَ فيه.

- هو مَنْ خذلني.

أشارت بسبّابتها من جديد:

- هو هناك لم يتحرّك.. الفضاء عينه...

- عليه أن ينتصر عليّ، على عجزي، عليه أن يخلق فضاءه بنفسه، وأن لا يستسلم لقدري..

قالتْ من دون أن تشيح بوجهها عن ملاحقته:

- أنتَ خالقهُ...

تساءلتُ برعب:

- وأنتِ من أين؟... وكيف؟...

فهمستْ:

- لا تخلط بين الواقع والخيال... أنا قارئتكَ.

بقيتُ ساهمًا، وامتلأتْ بالتيه معي، رُحنا نلحظ إذا كان في قدرته أن يتحرّك، لكنه عاد فخذلنا من جديد، الفضاء نفسه، والضوء السّاطع، وحلقات الضّباب المتداخلة، ولسبب ما استحكم اليأس، نهش الثبات كل محاولة للحركة، حتى الضّباب تجلّى في سكون مرعب.

برغم ذلك لم أيأس، فبحكم خبرتي قدّرتُ أنّ أية إشارة منها قد تشعل فينا الحياة، ووجدتني أفكّرُ برغبة ذئب، وأطرح لنفسي احتمالات من الممكن أن تؤدي إلى معنى، ولشرودي... سألتني:

- فِيمَ تفكّر؟...

- في الذي سيحدث.

- كيف؟...

قلتُ مداريًا ما في رأسي من احتمالات:

- لا أعرف، ولكن ثمة أمل يلوح في الأفق.

لم تسألني ما هو، تركتني لنفسي، وتركتْ نفسها للكتاب.

بدا لنا بعدها أنّ الكاتب يتعرّق، كان الفضاء الذي حواه قد اشتعل بالقيظ، استمرار الضوء الأبيض السّاطع فيه لمدة طويلة، كفيل بأن يحوّله إلى ما يشبه الفرن..

- أووووف الحرارة لا تطاق...

لم آبه لما قالت، فراحت تفكّ أزرار فستانها، كانت مدركة أنها في غرفتها المقفلة، وأنّ لا عين ترقبها، وأنّ الذي بين يديها مجرّد أخيّلة، إذ لا يمكن لكائن ورقيّ يبدو كنقطة سوداء في فضاء هلامي أن يتحرّش بها، فزاد كل ذلك من درجة اطمئنانها، ووسّعتْ فرجة الفستان عن صدرها، فانكشف نهداها..

تدفّق البياض الآثم، روح الحليب الذي يشعل الشهوة، الجسد المعدّ المستعدّ للانفلات من أقل مثير، الجوع الكافر الأعمى المُحَاصَرُ بالقتل..

كل هذا العصف، وهو ساكن في ضبابه، لم أنجح في إخراجه من موته المطلق، فهمستْ لي:

- عَرِّنِي أكثر...

انصعتُ للأمر بلا تفكير، ارتعشتْ أصابعي سكرى بالخوف والإقدام، لامستُ شعرها بتردد.. لم تبدِ امتعاضًا، زرعتني بالثقة والرّغبة، فرحتُ أجرّدها من الفستان..

- لا تطمع أكثر...

عادتْ تفتح الكتاب على آخر صفحة بلغتها في القراءة، وانتظرتْ أن يقول الكاتب شيئًا، فلم تجد غير وصف للفضاء الذي وضَعْتُهُ فيه، ونظرتْ حولها بعينين يائستين، ونبستْ:

- لامس جسدي إنْ استطعت من غير طمع.

- هل يكفيني ذلك؟

- لو شبعتَ فستموت.

تساءلتُ بخوف:

- وهو؟...

- أنتما واحد.

تساءلتُ بدهشة أكثر:

- كيف يستوي الخالق والمخلوق؟..

حرّكتْ شعرها الغارق في السواد، نظرت إلى البعيد، وقالت:

- لم ينتصر عليكَ، وهذا دليل عجزكَ.

- بل هو عجزكِ الذي لم يخرجه من حالة موته.

هبّتْ واقفة وهي ممسكة الكتاب، اتخذتْ لها هيئة تمثال بالغ الجمال، عارية من كل شيء، بيضاء، ثرية، مثقلة بأسرار العسل، وهمستْ بدلال فاض فوق كل شيء:

- منّي يبدأ الخلق.
- وأنا؟!...
- نقطة سوداء عاجزة في فضاء أبيض.
- أحاول أن أقول شيئًا ذا معنى.

انفجرت ضاحكة متهكّمة:

- الحياة في أصلها بلا معنى.
- إنْ كان ذلك أقصى إيمانكِ، فَلِمَ تجهدين نفسكِ بقراءتي؟..
- أنتَ من يجهد نفسه بكتابتي.

وضعتْ الكتاب جانبًا، وأضافت:

- هل ستتركني عارية هكذا؟..

ولم يجبها، ظل ساهم الطرف يفكّر في نهاية مثيرة تليق بهما.

المجهول

قالت وهي تعيد الأطباق إلى مكانها:

- علينا أن نفكّر بجدية..

استسلم للصمت كأنه يهرب من الرّد عليها، إذ لم يكن ثمة ما يقوله، فما كان يخافه قد وقع وليس من الهيّن إصلاح هذا الخطأ. لقد تورّط بما يكفي للقضاء على مستقبله المهني، بدا كأنّ جهد سنوات عمله الطويلة قد ذهب أدراج الرّياح، ولام نفسه لأجل ما اقترفت يداه، لكن هل ينفع العتاب في أتون رجّة الخسران وفواجع النهاية؟..

وانتشلته من صمته:

- لا تكن سلبيًا إلى هذا الحدّ.

هزّ رأسه بتعب، وهو يقول:

- وما الحلّ؟..

- لا أعرف.. لكن لا يجب أن نستسلم..

وراحت تذكّره بتاريخهما الحافل بألوان الصراع وتجاوز المحن والانتصارات المتتالية على العقبات التي تعترضهما في كل مرة، وتعدّد مزاياه في حسن التصرّف والتدبير حتى أخرجته عن صمته.

- الحال غير الحال يا فاطمة..
- لا شيء مستحيل.
- إلاّ هذه المرة.

ربما لم يصارحها بكل شيء، لذلك باتت تحمل بعض الأمل الذي تتجاوز به معه هذه الغصّة، أما وقد ارتمى ورماها معه في محيط اليأس، فليس لها غير أن تجتهد لفهم أعظم يضعها في حقيقة ما يجب أن يكون، وجاءته بفنجان قهوته الذي تعوّد أن يشربه بعد العشاء، وهي تجرّب مناوراتها بحذر الأنثى لآخر مرة:

- إنْ كان الأمر يتطلّب محاميًا فلا تتأخر..

فقال وهو يلتقط فنجانه من يدها:

- ليت الأمر بهذا اليسر..
- فكيف هو إذن؟!..

تنهّد بعمق وتأمل الصالة الغارقة في ضوء كسول، وقال:

- التحقيق مستمر وسيطيح برؤوس كبيرة.

- وأنت؟
- قد أكون كبش فداء

ولولت كمن مسّتها لسعة سيجارة:

- هذا الذي لن يكون..
- ليس أمامي خيار آخر ..
- لن تدفع ثمن أخطاء غيرك.

نعم هذا ما يفكّر فيه، لا يجب أن يدفع ثمن وزر غيره.. لكن كيف؟..فالشرك يبدو مستحكمًا حول رقبته.. لا ينفي عن نفسه الخطأ، هو أيضا امتدت يده إلى مال الشركة، ولكن الأمر حدث بالإكراه.. قالوا له أنت معنا أو علينا، ولم يمهلوه كي يختار الموقف الذي يجب أن يكون عليه، وحاول أن يخلص إلى حل يرضيه، فطالب بمقابلة أصحاب الشأن.. لكنهم قالوا:

- الأمر لا يستحقّ، ثم إنها عملية بسيطة لا تستدعي كل هذا الرّوع والتفكير..
- أريد أن أفهم لا أكثر..
- الأمر أكبر منك ومنا.
- لكنني....
- نفذ وسيكون كل شيء على ما يرام.

انصاع للأمر، وصدع لرغباتهم، ونفّذ ما طلب منه على أدق

وجـه.

هكـذا انتهـى كل شيء ببسـاطة كوخـزة إبـرة تـشرف به عـلى الهلاك. ويومـا بعـد آخـر تسـوء الحـال، وتشـتعل الأقاويـل، وتتضـارب الـرؤى، فتتداخـل الحقائـق بالإشـاعات المغرضـة، يجفـل كطائـر بـلا مـأوى، لكـن الأصـوات المطمئنـة كثـيرة..

- لن يحدث شيء..

- لا تخشَ.. سيكون كل شيء على ما يرام.

وبـين نـداء الخـوف وأمـارات الفـرج يتشـظى القلـب كـما تتشـظى الطريـدة بـين احتـمالات المـوت والنجـاة، هـو لا يبـدو أنـه مسـتعدّ لـلآتي، وليـس بإمكانـه أن يحتمـل ضربـة الزلـزال كاملـة عـلى رأسـه، وقـال دون وعـي:

- ليست المشكلة في توقيفي عن العمل فقط..

فسألت بجزع:

- وماذا هناك غيره؟!..

- التعويض... السجن...

تجلّـت الحيـاة كريهـة نتنـة بـكل عبوسـها وقسـوتها. شـدّ مـا تنفجـر الحقائـق أمامنـا عاريـة مـن كل أمـل، واستسـلمت لموجـة مـن بـكاء كأنهـا تعـترف بثقـل الحمـل واسـتحالة العـلاج، ورغـم اليـأس والأوجـاع التـي تناهبتـه فقـد حـاول طمأنـة قلبهـا بـما وسـع قلبـه

مـن رباطـة جـأش وعزيمـة باقيـة:

- لعلّه خير لنا...

إلاّ أنهـا نصحـت لـه بمحـامٍ يدفـع عنـه مـا قـد ينجـرّ مـن قـادم الأهـوال، ووقفـت تسـنده بالـرّأي والمشـورة حتـى قالـت لـه:

- ربّك كبير ويفرجها...

وتسـاءل بـدويّ هـزّ أعماقـه.. هل نـسي الله في حياته إلى هـذا الحد؟.. وهـل اسـتهلكته الدّنيـا إلى الحـدود التـي أكلـت فيهـا دينـه، فلـم تترك لـه غـير هـذه الجثّـة العفنـة التـي ترجـو خلاصهـا الدنيـوي؟.. مـن أيـن لـه بالإيـمان وهـو يغـرق بـكل هـذا العمـى في بحـر الرّغبـات المحـدودة؟.. وكيـف سـيفيده الإيـمان المتأخـر الآن؟..

فـات أوان هـذا التفكـير Ü عـلى الأقـلّ في حـلّ دنيـاه Ü وقالـت كأنهـا تقـرأ خواطـره:

- ربّك يفرجها دنيا وآخرة..

هـزّ رأسـه كالمؤمـن بـما تقـول.. نعـم لا مهـرب إلاّ لله، ولا منجـى لـه في الدنيـا والآخـرة إلاّ بـه.

بـدا كأنـه يهتـدي إلى طريـق الحـقّ متأخـرًا، وسـلّم أمـره بيقـين مطلـق إلى يـد الله، تضاءلـت الدّنيـا في عينيـه، فلـم يعـد يـرى في الحيـاة مـا يقـضّ مضجعـه، واختلـف إلى المسـاجد بقلـب عامـر بالإيـمان، ووقـف يواجـه التحقيـق بثبـات وجلـد، وترامـت أخبـار بلائـه مـع

مستجوبيه تحمل إلى الآخرين الرّعب والقلق.. بدا كأنّ الدائرة قد دارت عليهم، فقد لاحت قوته مقابل ضعفهم، وطمأنينته مقابل قلقهم، وتساءل بعضهم:

- أيّ سرّ يحمله الرجل؟..

وفسّر البعض الآخر الأمر على أنّ هناك صلة قرابة ربما تربط الرّجل بالوزير، وتقوّل آخر: بأن الرجل نُقِلَ في التحقيق إلى جهات أمنية سرّية يتعلّق عملها بالجماعات الإرهابية المسلّحة..

لا أحد فهم سرّ اللغز المستعصي، وها هي أقدامهم تتهاوى في تراب الشك والارتباك، والرّجل لا يترك وراءه أثرًا يقتفونه، فقد أوغل في المجهول، وتسلّل الهمس ودبّ الخوف في قلوبهم، وتعلّقت أعينهم بانتظار جديد...

شتات جثّة

كنتُ أجلس في المقهى كعادتي كل مساء، حين اقترب منّي وهو يلهثُ.. بدا لي منه وجه شاحب، ومن عينيه رفرف هذا الحزن الفاضح، قال وهو يسحبُ كرسيه إلى جواري:

- لا أعرف كيف أخبرك..

قلتُ:

- بِمَ؟!..

نظر في الفراغ كأنه يبحث عمّا يقوّي إيمانه بالقدرة على الحديث، فسألته :

- تشرب قهوة؟..

- لا

- طيّب.. ماذا وراءك؟

تهدّج صوته ببكاء طفل، وهو يهمس:

- يؤسفني أن أنعيكَ..

اشتعلت نظرتي بسؤال الدهشة والرّعب:

- متى حدث ذلك؟..

- اليوم صباحًا.

ثم أضاف دون أن يحفل بتوتري:

- طوال اليوم وأنا أبحث عنك لأعلمك بهذا النبأ، لقد تطوّع أهل الخير للقيام بالواجب الذي يقتضيه الموت.

بدا الاستياء على وجهي وقد لاحظ عليّ ذلك، فعاد يسألني:

- هل ضايقتك؟

- بالتأكيد.

- لا تقلق.. لا شيء يجري خارج رغبة الموت.

وقف بعد أن سحب كرسيه إلى الوراء ودّعني بحرارة، وهو يقول:

- لا تتأخر نحن في انتظارك.

كانت جثّتي مسجّاة في المشرحة، وكان عليّ أن أعرف سبب هذا الموت الغريب، لا أكاد أذكر من وجه الصباح غير أطياف الضوء الأولى، لعلّني استيقظت على وخز بعض الألم الطفيف.. لم أعره انتباهي، قلتُ في نفسي.. ليست المرة الأولى.. يومض هكذا كبرق، ثم يخفت في حركة الحياة الكبيرة.. أنساه فينساني، ويمضي كل منّا إلى حال سبيله، يخرج منّي فأخرج منه، وأمنح يدي للحياة، انصاع بكل الرّغبة والحبّ، أما المرّات التي كان يزيد فيها عن حدّه، فقد كنتُ ألجأ إلى قرص الدواء فيسكت

كل شيء.

في هذا الصباح ربما زادت وطأته فدهسني بحوافر ثور هائج، ربما مشيتُ متعثرًا ببعض الإرادة والقوة وأنا أحضن بطني، تلوّيتُ كأفعى، خرج الأنين فحيحًا.. نشب أنيابه ومخالبه في أحشائي وعضّ وسحب بأقصى ما يستطيع، وربما قاومت بأقصى ما أستطيع من التحمّل.

أحسستُ بعرق بارد يتفصّد من جسدي، ورأيت الظلمة تخرج من رحم النور.. حملتني الطريق، تداخلت الأصوات، علا الضجيج، وثار الغبار.. كما لو كان كابوسًا شقّ هدوء النوم، وبين يقظة وغفوة حدث كل شيء فانصهرتُ مع ما يحيط بي، وجاءني صوت رجل:

- احملوه..

وحملوه.. ساروا به إلي سيارة وقفت على مقربة من مكان سقوطه.

لا أذكر بعد ذلك أيّ شيء إلى أن وجدتني في المقهى أجلس كعادتي عند كل مساء، والرّجل الغريب ينعيني بعينين مشتعلتين بالاهتمام، وقد غادر قبل قليل..

- في انتظاري أين؟!..

اختفى سريعًا كما ظهر، وارتطم سؤالي بالفراغ، فعدتُ أتشاغل

عـن التفكـير في المـكان الـذي سـوف نلتقـي فيـه بملاحظـة الشـارع، اكتسـحني بعـض الخـوف مـن فكـرة العـودة إلى البيـت، ثـم بـدأت أشـعر بضيـاع جثتـي في أكثـر مـن مـكان ..

- يستحيل دفن كل هذه الجثث دفعة واحدة..

لكـن الرجـل قـال إنّ كل شيء يجـري داخـل رغبـة المـوت، وهـم في انتظاري الآن..

ولكن أين؟!...

المسـاء لا يتغـيّر.. نفـس ملامـح المقهـى، ومنـذ أن صفعنـي بنبئـه سـاد هـذا السـكون القاتـل، مـا وفـرّ لي فرصـة التفكـير بعمـق كـي أحـدّد عـلى الأقـل في أيّ الأماكـن قـد أكـون الآن...

هـو لم يقـل إنّـك في المشرحـة، وأنـا عزفـتُ عـن فكـرة العـودة إلى البيـت خوفًـا مـن النـدب واللطـم اللذيـن سَـأُقَابَلُ بهـما، ثـم إننـي لا أريـد رؤيتـي وأنـا في الكفـن.. أمـا اللغـو الـذي تدعـوه الحاجـة للتذكـير بمناقبـي، فلسـتُ متحمّسًـا لسـماعه..

الآن...

لا شيء بعـده، وكل مـا يمكـن لـه أن يكـون فَقَـدَ معنـاه.. فقـط كيـف أجمـع جثتـي المتفرّقـة؟ وأيـن سـوف نلتقـي؟..

كان جسـدي يتعـرّق ولهاثـي يصـمّ أذنيهـا، بـدا أننـا اكتفينـا.. سـحبتُ جثّتـي مـن تحـت ثقلهـا، لبسـتُ ثيـابي بالسرعـة المطلوبـة

لمغـادرة المـكان..

- إلى أين؟..

مددتُ يدي بورقة ألف دينار، وأنا أغمغم:

- لا أعرف..

ضحكـتْ بـدلال وهـي تتنـاول أجرتهـا، كانـت عاريـة كسـيف، بـدا لي جسـدها المقـزّز وقـد فقـد شـحنة إثارتـه، انطفـأت كل مفاتنـه، وفكّـرتُ في جسـدي وأنـا أتسـاءل.. كيـف يبـدو هنـاك وقـد سـكت عـن فعـل الحيـاة؟..

- إلى أين؟..

- ربـما إلى المشرحـة أو البيـت أو المقهـى.. لا أعـرف وجهتـي بالتحديـد..

حملقـتْ مـن وراء تعبهـا، لم تفهـم لِمَ كان ذهـابي إليهـا، فقلـتُ وأنـا أغـادر:

- جئتُ لأستعيد جثّتي فقط.

* * *

لا أعـرف أيّ مبلـغ وصلتـه ترتيباتهـم، لا أعـرف مـا الـذي أنـوي فعلـه، ولم يحـدّد لي المـكان الـذي سـوف نلتقـي فيـه..

ظهـر واختفـى، صعقنـي بالخـبر وكان عـليّ أن أصـدّق، عـليّ أن أجمـع جثثـي المتناثـرة بـأسرع مـا يمكـن، وعـلى بـاب المشرحـة بـدت فتـاة في مقتبـل العمـر، بيضـاء كمـلاك سـماوي:

- انتظر حتى يمضي الطبيب التصريح.

- ما سبب موتي؟..

تركتنـي لصـدى سـؤالي وغابـت، عـدتُ أفكّـر في أشـياء كثـيرة وأنـا عـلى المقهـى.. غسـلي،كفني، قـبري، شـهادة وفـاتي، تصريـح دفنـي.. لكـن قبـل ذلـك عـليّ أن أعـرف السـبب، وأن أخلّـص هـذه الجثّـة مـن المشرحـة.

عـادتْ الممرضـة، دخلـتْ المقهـى، جلسـتْ بهالـة البيـاض إلى جـواري، ناولتنـي التصريـح، وهـي تقـول:

- تستطيع أن تستلم الجثمان.. أما سبب موتك فهو الحياة.

صُعِقْـتُ مـن السـبب، رحـت أفكّـر فيـما لـو أسـتطيع أن أعـود إلى البيـت بجثتـين لأشـهدهما عـلى جثتـي الثالثـة.. لم يعـد للوقـت أيّ معنـى، ولا لتنـاوب الضـوء والظلمـة أيّ أثـر في حيـاة هـذا المـوت.. فـراغ مطلـق في أثـير سـحري، وأصـوات متداخلـة تصـل السـماء بـالأرض ثـم تتجـلّى واضحـة بـكل صفائهـا، والرجـل يقـف في بـاب المقهـى ويشـير لي بيـده أن أتبعـه..

قلتُ إلى أين؟..

فلـم يـرد، سـار أمامـي فتبعتـه بطاعـة عميـاء حتـى انتهينـا إلى بنـاء كبـير فدخلنـاه، ووقفـت أمـام شـبّاك، فقـال:

- هذه شهادة وفاتك..

طويـت الورقـة ووضعتهـا في جيبـي، وهمسـت لنفـسي ببعـض الأسـف.. هـذا مـا يؤكـد مـوتي فعليًـا، ولكـن جثّـة أخـرى لي لا تـزال في البيـت، ونفـس المسـاء لا يتغـيّر.. ظلّـت الشـمس ثابتـة كـما هـي، قرصـا أصفـر يرفـض أن يـذوب وراء الأفـق، كأنّ الزمـن انتهـى هنـا وتوقـف بـكل مـا فيـه، وبقـي انتظارهـم لعـودتي هـو كل مـا يشـغلهم في هـذه الحيـاة.

لحم رخيص

تطلّع إلى الساعة الذهبيّة في معصمه، بدا كأنه يوطّن النّفس بصبر على انتظار ما، ثم عاد يمسح الطّريق بنظراته.. لا أثر لها...

أيّ عذر سوف يلتمسه لهذا الغياب؟.. لكنها لم تخيّب أمله قبل هذه المرة، في ذات التوقيت وفي نفس المكان تأتي مزدحمة بلذّاتها، تتلفّتُ يمنة ويسرة، ثم تفتعل هذا التباطؤ الذي لا يخفى على أحد إلى أن تحاذي باب سيارته المركونة عند الزاوية، فتقفز إلى جواره بخفة فأر.

هكذا كان يحدثُ كل شيء.. سريعًا، عاصفًا، ثم تنجلي سحب التوتر والخوف، وينكشف وجه الحياة بما سيكون، فيقول وهو يسوّي سحّاب بنطاله:

- هل أوصلكِ؟..
- لا.. لا تعرّضنا للقيل والقال.

يحرص من جهته على أن يتم الأمر بسرّية تامة فينصاع لرغبتها، ويمضي كل منهما إلى حال سبيله كأنّ شيئا لم يكن..

فكّر فيما يكون قد لحق بها فلم يهتد إلى سبب معيّن، تنازعت قلبه الهواجس وبعض من الحنين إلى ما كان، وهذه الرّغبة التي اضطرمت كنار تأكله من الداخل، انحصر نظره بين ساعة تتلكأ وطريق موحشة، ثم رأى من اللائق أن يغادر المكان فلم يعد للبقاء أيّ مبرّر.

لأول مرة يعترف لنفسه بمرارة الانتظار الفارغ من كل معنى، راحت أصابعه تعبث بانفعال ظاهر في مفاتيح السيارة كأنه يستعدّ للمضي.. ثم...

ثم ظهرت فجأة من بعيد..

تهادت بنفس مشيتها القديمة، راقبت المكان بعينيها وقلبها، اقتحمته كفرحة مفاجئة، وهي تهمس بقلب مضطرب:

- تأخرّتُ عليك؟..

- حسبتك لا تأتين..

فقالت وهي تلقي بنفسها في حضنه:

- الأولاد...

كأنها إشارة كافية لتربط أسباب تأخرّها بعجلة الإتمام والمغادرة، فليأخذ قدر ما سيدفع ثمنه ولتقبل هي ذلك على مضض.

راقب المكان بعينين مشتعلتين بالحذر والشهوة، جسدها الأبيض يتدفق بين يديه، أحسّها سريعة، وقرأ بذبذبات أعصابه

هـذا الإقـدام الخـالي مـن كل رغبـة كأنهـا تـؤدي دورهـا بتكلّـف، وتُقْبِـلُ عليـه في مقـتٍ، وتسـايره إلى نشـوته بـلا إيـمان، لكنـه لا يكـترث لـكل ذلـك فهـو يدفـع لأجـل غايـة، وأمـا الطّريـق إلى تلـك الغايـة فأمـرٌ لا يعنيـه تمامًـا مثلـما لا تعنيهـا الطريـق إلى غايتهـا، فهـي تندفـع بواجـب، وتنفعـل بإكـراه، وتجـري إلى غايتهـا وغايتـه بأقـصى مـا تكـون السرعـة وبأقـلّ مـا تعترضهـا الأضرار، ثـم سـمعت شـخيره يعلـو كحيـوان وقـع في مصيـدة، أحسّـت باهتـزاز السـيارة تحـت حركـة ثقلهـما الجامـح، تهيـأت بـكل مـا فيهـا للحظـة الفارقـة الحرجـة، وهمسـت بصـوت متحـشرج:

- المكان غير آمن..

لكـن أوان العقـل كان قـد فـات، فسـقط تحذيرهـا في الفـراغ بـلا جـواب، واستسـلمت لـكل الخـراب المحـدق بهـا..

حـدث كل شيء في مـوت الوقـت بينهـما، انقضـت نـار الحاجـة مخلّفـة مـرارة هـذا الرّمـاد في النفـس، وحملـت نظراتهـا إلى طـول الطريـق هـذا النّـدم الفاجـع فلاحـظ ذلـك عـلى تململهـا:

- ما الذي أقلقكِ؟..
- الأولاد..
- ما بهم؟..
- كلما كبروا زادت حاجاتهم.

أطرق مفكرًا لبعض الوقت، ثم عاد يقول:

- ونفقة طليقك؟

- بالكاد تكفي.

عاوده الشعور بالواقع، تجلّت الحياة بأوجاعها.. الآن يستطيع أن يرى حجم الحاجة وهي تتكاثر في استسلام عينيها وتثاقل لسانها وانكسار تنهداتها.. فنبس يُخْرِجُهَا ويخرج عن صمتهما:

- أفكر فيكِ دائما..

ضحكتْ كأنها تستهزئ بجراحها:

- وبماذا يفيدني ذلك؟..

ابتلع غصّته وركن إلى الصمت من جديد، نعم بماذا يفيد التفكير في مثل موقفهما؟.. وما بينهما لا يعدو أن يكون مجرّد إشباع لجوعهما الذي لا تنطفئ نيرانه إلاّ بهذه المقايضة التي تُكْرَهُ عليها.. تعطيه فيعطيها، ويكون الكرم منه بقدر البذل والتعهّر منها، هي لم تر يوما في ماله غير تلك القيمة التي تتساوى وحاجة أطفالها إلى الأكل، وقالت بحسرة كأنها تجدّد حوارهما:

- آآآآآخ لو كنتُ أستطيع الحصول على عمل..

- أبواب الرزق كثيرة.

- لا حظّ لي فيها.

ربّت على فخذها البيضاء المكشوفة، وهو يهمس:

- أنا حظّكِ.

لعنت الحظّ والحكومة والسياسة والجوع، كما لعنت الرّجال والدنيا، وقالت في نوبة بكائها:

- لا أبحث إلاّ عن لقمة لا تضيع فيها الكرامة.. هل هذا كثير؟!...

لاذ بالصمت، أحرقت روحه بدموعها وحاصرته في النقطة التي لا يحبّ أن يكون فيها، أشركته في فجيعتها ورمته بالاتهام، هو أيضا يمارس قتله ويلوّث حياتها برغباته الفاسدة، إنه ترس في هذا النظام الكبير الذي يتحرّك فيسحق روحها قبل جسدها، وهو أولى باللعنة من غيره.. مفتاح سقوطها في الهاوية، وجمرة شهوة لا تستسلم للرّماد، ونفقتها يسيرة، الأولاد كبروا، حاجاتهم تزيد، أفواههم فاغرة كأفواه فراخ تنتظر أوبة أمهاتها، وهو وليّ نعمة لا يمكن نكرانها، لكن اللعنة تحيق به...

طحنها الصمت من جديد، ترامت أمامها الطريق بوحشة الموت.. تعثّرت بالذكريات والأوجاع والحاجة، سرى العجز في كل شيء، وهمست لنفسها وهي تحثّ خطوها نحو الشارع المؤدي إلى السوق:

- هل تكفي ألف دينار لشراء اللحم؟!...

الحالم

يسأل زوجته السؤال ذاته كل صباح، حين يستغرق في النوم تنهض هي.. لا يحسّها ساعة تغادر الفراش، ربما تفعل ذلك بتسلّل تحافظ فيه على عدم إيقاظه..

يتمطّى ويقول:

- صباح الخير..

يقولها مملوءة بالنعاس، وتسمعها ببرودة وهي منشغلة عنه بالموبايل، ثم يسألها:

- أبكرتِ؟..

فتزمّ شفتيها:

- أممممممممم

وفي صباح ثانٍ يسأل:

- أفقتِ باكرًا؟..

بنفس الجواب ونفس الانشغال عنه تجيبه، وتتكرّر الصباحات ويختار فيقول لها:

- ليتك تستيقظين متأخرة مرة واحدة في حياتك...

ثم يكشف لها عن غيرته من يقظتها الباكرة وما فيها من فوائد صحية، ويتمنى لو بمقدوره أن يفعل مثلها، وهي تقول له:

- أنا أنهض لأجل ولدي..

وولدها ثمرة زواجها الأول، وهو يهز رأسه بمباركة ما تفعل، ويهمس لنفسه:

- الولد يستحقّ ..

غير أنه كثيرا ما منّى نفسه ببقائها إلى جواره حتى يفيق، لم يصارحها بأمانيه وإلاّ كانت أشعلت السماء فوق رأسه..

كانت ستقول له: لأنّ الولد ليس ولدك..

وكانت ستقول له: هل أدع الولد يمضي إلى مدرسته بلا إفطار..

وكانت ستكيل له سيلاً من العتاب..

وكان ليسكت، فلا جواب له أمام الأمومة وهي تدافع عن قدرها.

لكنه لم يعرف معنى الأبوّة، هذا الشعور لم يجرّبه، وهي تلفت نظره ووعيه بما تقوم به من تضحية، وكان يقول لنفسه:

- تمنيتُ ولدًا من صلبي...

غير أن المرأة دخلت سحاب اليأس، فكيف ستلد الآن؟...

كان زواجه هروبًا من وحدته. أعجبته فليكن، بيضاء، مملوءة،

فارعـة، شـعرها كالليـل، مشـيتها معجـزة، كل شيء يغـري.. اللـون والهمسـة والصمـت والضجيـج، وفـوق كل هـذا لهـا ولـد، واندلعـت نـيران الغوايـة مخلّفـة رمـاد قـراره.

فقالت:

- أنا أكبرك .. فكّر في الأمر...

في اندفاعات الرّغبة لا تفكير...

- سنتزوج...

- .....

وقبل أن تنبس سبقها بقوله:

- هذا هو الحبّ...

صدّقته، أو بالأحرى صدّقت نفسها فيما هي مقدمة عليه...

فليكـن الـزواج عاصمهـا مـن الفتنـة، وهـذا ظـلّ رجـل تتفيّـؤه كلـما هاجـت شـمس الحيـاة بلسـعاتها الحارقـة...

لا يعـرف بعدهـا كيـف حصـل كل شيء، بالدهشـة التـي فاجأتهـما معـا.. نـزلا فندقـا رخيصـا عـلى شـاطئ مهجور،كانـت أيـام خريـف، بـدا كأنّ البحـر قـد سـعر، لعلعـت الرّيـاح واندفـع المـوج..

كان يـشرب في بـار الفنـدق ويرقـب الكـون مـن وراء الزجـاج ويغمغـم:

– حتى ما جئت لأجله غير موجود...

المرأة ثيّبًا، والحياة فارغة...

حين أفاق في الصباح وجدها قد سبقته، جلست على حافة السرير بروب الدانتيل الذي بدا بلون البحر، وبكسل الصباح مدت أصابعها إلى صدره وراحت تخربشها..

كان خاليا من اللهفة.. لم يكن رد الفعل بحجم تلك الإثارة.. القطط أحيانا لا تثير تعاطف أصحابها حتى بما تقوم به من حركات التحام وحفر عن الدفء، راح يسحب الغطاء على جسده من جديد كأنه يهرب من دعواتها.. لقد اكتفى، هو لم يجد في طول الليل وعرضه ما يبحث عنه الرجل في أول النساء.. وهو ليس أول من يطرق حياتها..

طرق أحدهم باب الغرفة، فنهض متثاقلا يجرّ تعب ليلته تلك، فتح الباب، فبادره صوت يقول:

- لا تتعب نفسك.. لن تجد ما بحثت عنه طوال ليلك..

سأل بخجل وتردّد:

- أنت والد الطفل؟..

جاءه صوتها من الداخل:

- من على الباب؟..

لم يكترث لها، وفي لمح البصر اختفى الرجل بالسرعة التي ظهر بها، ابتلعه الرّواق، وتمنى لو سأله.. أكانت تبكر وهي معه؟...

عاد أدراجه إلى السرير، وهو يقول:

- تخيّلي .. والد طفلك كان على الباب..
- تقصد زوجي؟.. أقصد طليقي؟..
- نعم.
- ماذا يريد؟
- لا أعرف.. لكنه أجابني بخبث..

فقالت وهي ترنو إلى ضوء شاشة الموبايل منشغلة بلعبها:

- لعلك سألته بخبث..
- لا أعرف..

عاد إلى نومه يحلم بامرأة يجد عندها ما يفتّش عنه..

عقدة البحر

يعرف ذلك الرّجل، يعرفه حقّ المعرفة، لا طريق إلى نسيان وجهه حتى لو باعدت شقة العمر بينهما، التفاصيل لا تُنْسَى، الحادث لا يمسح الوجه من الذاكرة، موقف الهول يحفر الصورة في الرأس، لتعيش وتكبر من دون أن تمسسها يد التحوّل..

هو يعرفه، أبإمكان الآخر أن يذكره؟.. لم يسأل نفسه هذا السؤال وهو يهمّ بمصافحته، وسلّم الرّجل بطريقة عادية، مصافحة لا حرارة فيها، مدّ يده بسرعة وسحبها بنفس السرعة، ورغم أنه تكلّف في سلامه بعض الاهتمام الذي يفرضه الذوق كهزّ الرأس وافتعال البسمة إلاّ أنّ موقفه ذاك وشى بلقاء ميّت، كأنما يلتقيان لأول مرة..

هل أخطأ التقدير؟ أيكون الشبه بين النّاس إلى مثل هذا الحد من التطابق؟ نفس القسمات، سواد العينين، تضاريس الحاجبين، الوجه المغضّن المدوّر الأسمر، الذقن الناتئ عند النهاية، الشّارب الكثيف، الشفتان الغليظتان، الرّجل لم يتغيّر، هو هو، وحتى إن أخطأ تقديره بمثل هذا التطابق، فإنّ الشّامة النّابتة

في أعلى الحاجب تدل بما لا يدعو للشك أنه هو، الأثر الذي لا يتكرر لإصابة قديمة انتهت إلى شفاء غير مدروس، هذا ما يطمئن روحه بأنّ معرفتهما سبقت هذا اللقاء بعمر طويل، وإنْ كان نسيان الرّجل لوجهه ولما كان بينهما، فذلك أمر لا يد له فيه..

استردّ يده إلى جيب معطفه وهو يحملق في وجهه، كيف نسي كل الذي كان؟ تاريخ طويل من الحياة على حافّة الموت، وجها لوجه والتيارات بينهما تستعر كالنّار، بدأ البحر لعبته القذرة في غفلة الطمأنينة، تمدّدت الرّيح كالشيطان، صفّرت، ولولت، وسُمِعَ صوت ارتطام الأشياء ببعضها متداخلا بصرير يصدره خشب المركب:

- العاصفة لم تبدأ بعد..

سمعه رغم عويل الرّيح، أومأ له أن ينزل الشراع، كأنهما يستعدّان للأسوأ، القارب يترنّح، والبحر يتثعبن، مياهه انطفأت من الزرقة، ثم بدأت تميل إلى هذا الرّمادي الدّاكن، وشيئا فشيئا نهض هذا الضباب من قلب الماء، ثم راح يتكاثف، فيما هو يشقّ طريقه وسط أكوام الحبال نحو الصاري، يتعثّر، يسقط، يقوم، يده على حافّة المركب، قوة دفع رهيبة تصبّه صبًّا نحو قعر السطح، الرّيح تعوي، بيد باردة سحب طاقيته الصوفية

ليقي أذنيه، اليد الأخرى عالقة، لم يبلغ الحبل بعد حين هاج الموج من جديد، صفعة أقوى، الطوفان الجارف، والمطر انفلت من قبضة السماء نازلا كالحقد، باردا كالموت، حارقا كالجحيم، المركب يتهادى، يضّل الطريق، يغوص، يعلو، والموج يشتعل، يضرب، من وراء نثار تطاير الماء انكشف وجهه المرهق، في عينيه هذا اليأس المقيم، والصوت يبلغه بمشقة:

- تمسّك جيّدا.

يده تكاد تنخلع عن الحافّة، الألم يكوي كتفه، والحبل هناك، تؤرجحه الرّيح بلهاثها المسعور، لو يقذف بنفسه أيمكن له أن يصل حيث يتدلّى الحبل من دون أن ينجرف؟ القارب لا يثبت، المطر يجلده، البلل يخترق كل شيء، للسيّل لسان حارق، كأنّ لحمه يُشْوَى..

ولكن، كيف بوسعه أن ينسى؟ يده عادت سريعة، وملامحه لم تكشف عن المعرفة القديمة، لا شيء من أثر الماضي، ذابت الذكريات كقطعة ملح في الماء، ووقف يواجهه بعراء الجهل حتى قال:

- كانت تجربة عاصفة.

وحرّك الرّجل رأسه علامة تساؤل، أيّ تجربة يقصدها؟ وعلام يشرف حديثه؟.. وقبل أن يسترد وعيه لطمه بسؤال جديد:

- ما الذي حدث للمركب ذلك المساء؟

- المركب؟!

تساءل الآخر بدهشة وعينه على الطريق الخالية، فعاد هو يقول:

- نعم المركب، ألم تعد تذكر الحادثة؟

رفع يده إلى رأسه علامة من يبحث عن شيء في خزّان الماضي، فقال يحثّه أكثر على التذكّر:

- البحر..

تراءى له بغموضه الكبير، الزرقة الفاتنة اللامتناهية، الأحلام الخضراء المتناسلة، الأسر الذي يغوي، شمس آب المشتعلة والمظلّة شجرة تحجب عنه الوهج، في ارتداد البصر.. لمح الشاطئ يسيل بالأجساد العامرة، أجساد فائرة، منطلقة أكلت السمرة بياضها، اندلق بعضها على الرّمل الناعم وليمة من اللحم الحيّ، أعضاء متحفّزة من وراء أقمشة خفيفة وخيوط واهية، أما النظرة التي بدأت بريئة فسرعان ما لبست ثوب الرّغبة والفحش، وها هي أصواتهن تحيطه إحاطة السوار بالمعصم، لا بأس من كهولة تعاند الوقت وترتدّ إلى أزهى أيام الشباب الدّابر، وسمع دوي الصوت بأعماقه الشيب والعيب لكنه لم يطمع في أكثر من نافلة نظرة، وإن كان هناك من عتب فالبحر أحرى به.

وقال له بعد طول انتظار:

- هيه.. البحر...

فتحمّس الآخر لنشاط ذاكرته، وبدت على وجهه بسمة من ظفر أخيرا بالجواب والذكرى والمعرفة القديمة، فقال:

- الحقّ أننا عانينا ذلك المساء، صحيح أننا لم نعثر على جثّتك، لكن لا أحد ضمن نجاتك..

وقذف بجسده بأقصى ما استطاع نحو الحبل فتمكّن من طرفه، راح يفكّ عقدته كي ينزل الشراع، الرّيح داعرة، الرّيح تأكل وجهه بشهوة جائعة، يُخْنِي رأسه اتقاء شرّها، يميل ليتفادى صفع يدها المثقل بالمطر البارد، العقدة لا تنحَلُّ..

- كيف تتمرّغ على الرّمل من دون أن تنفتح العقدة؟!

ظلّ يتلصّص كذئب يتضوّر جوعًا في عراء الثلج، الفخذ بيضاء لم تهتكها سمرة الشمس بعد، المرأة وصلت الشاطئ لتوّها، أفرغت حمولة جسدها على منشفة كبيرة، يتربّص هو، بحرارة إيمان، عينه لا تسهو، وقلبه لا تباغته سنة، وكلّما مالت انكشف الثمر، تبدّى البياض أكثر، حركة الساقين فتنة، لكن العقدة على وهن خيوطها لا تطيع أمانيه، وبالأصابع التي قاتلها البرد راح يحاول.. شبقة هي فوق ما تخيّل، كالرّيح التي تؤرجحه الآن على ظهر القارب..

- اسحب..

تفجّر الصوت في رأسه كلغم، من أين جاء، وكيف انهال عليه الشيطان بهذه القدرة العجيبة؟

- البنت من عمر بناته..

ووجد نفسه يتراجع إلى الحافّة، دبّ الخوف فيه، فترك الخيط يطيش من يده..

قال له الآخر:

- كدت تقتلني يومها، كان المركب يدور في الدّوامة، وقفتَ مشدوها بلا حراك.. ثم

فقاطعه كأنه يستعيد وعيه لأول مرة:

- هل سحبتُ الخيط؟!

الطُّعْمُ

في أيّ يـوم يمكـن أن يحـدث ذلـك، العمـل غـير قـارّ، مسـاحة الحرّيـة واسـعة باتسـاع مزاجـه، لا أحـد يزجـره، ولا مـن يسـأل عـن سـبب غيابـه مثـلا، حتـى معارضـة الأصدقـاء فإنـه يدلّلهـا بالضحكة البريئـة الصافيـة الطالعـة مـن القلـب، وهـو يقـول:

- يا أخي راني نخدم عند روحي..

العمـل عنـد « الحكومـة « مشـكلة عـلى حـدّ قولـه، لا يمكـن لـه أن يصمـد فيـه، الرّوتـين المميـت لا يناسـب مزاجـه المتقلّـب، وسـجن الوظيفـة المضبـوط بـدوام السـاعات والأيـام لم يُخْلَـق لمثـل أجنحتـه، هـو هكـذا حـرّ وفـارغ مـن أيّ التـزام يفسـد عليـه متعتـه، ومتعتـه في عملـه المطلـق، يفعـل ذلـك أنـى شـاء، حتـى لـو دعـت الـضرورة لطـرده مـن العمـل - وهـذا نـادرا مـا يحـدث - فسـوف يجـد لـه عمـلا بديـلا، يـده مطلوبـة وثقـة النّـاس بـه تفـوق تملّصـه مـن عملـه بـين الحـين والحـين، إذ يكفـي أنـه ابـن حـلال، وأنـه يشـتغل كبغـل، ويخلـص في أداء مـا أوكل إليـه مـن مهـام، ولكـن مشـكلته، كل مشـكلته أنـه غـير قـادر عـلى مجـاراة نظـام النّـاس والتزاماتهـم، ففـي

أيّ يـوم يمكـن أن يحـدث ذلـك، فعملـه غـير قـارّ، ولا ضـير إنْ غـاب يومًـا، يـوم واحـد هـو كل مـا يلزمـه ليمـضي بعدّتـه إلى البحـر..

في ذلـك اليـوم الـذي قـرّر فيـه كانـت هـي قـد تحـضّرت، شـطحت في المـاء، غاصـت في العمـق، أفرغـت جسـمها مـن ثقلـه، بـدا وزنهـا ميّتًـا، مـا سـمح للتيـار بحملهـا في خفّـة ريشـة، ثـم اسـتيقظ وعيّهـا فجـأة، فاندفعـت بخيشـومها نحـو الحيـد البحـري تتشـمّم الرّوائـح والذكريـات، لا أكل، لا جثّـة يمنحهـا البحـر مكافـأة لهـذا السـعي الحثيـث، سرب السرديـن خلفهـا يتدافـع، ينزلـق في الزّرقـة، يعلـو قليـلا، يبطـئ، يـسرع، يـدور، يلتـفّ، ينفتـح، ثـم يهـرب بعيـدًا، الصخـور تبـدو خـضراء مـن أثـر مـا علـق بهـا مـن نباتـات، تتـلألأ الميـاه في العمـق، يلمـع جسـمها الفـضّيّ تحت أشـعة الشـمس المتسـلّلة مـن السـطح، تحيـد عـن الصخـر باسـتدارة كاملـة، ثـم تشـقّ طريقهـا رأسًـا نحـو الأعـلى، صلبـة العـود، رشـيقة القـدّ، والـسرب يتلاشـى، في كل اندفاعـة يتغـيّر إيقـاع تركيبـه، كـرة كبـيرة مهتـزّة الحـواف لا تـترك مـن أثـر يـدل عليهـا غـير هـذه الفقاعـات المائيـة التـي تنطفـئ بعـد حـين، أمـا هـو فقـد سـار معتمـدا عـلى هـذه الدندنـة التـي يقتـل بهـا وحشـته، فقبـل قليـل افترقـا بعـد أن اقتسـما الطّعـم:

- سأقصد الرّوشي «roche».. قال

عـلى الرّمـل تـرك آثـار سـيره، الصـاك ادو عـلى ظهـره والسـنّارة

مثنية في يده، بدا من جرّ رجليه كأنّ التعب قد استبدّ به وهو يتنقّل من نعومة الرّمل إلى قسوة الحجر، استند بيده على نتوء الصخرة، ثم دفع جذعه برجله اليمنى متخذًا لليسرى موضعًا حيث يمكنه أن يستمر، الحيد الصخري يتشعبن، نتوءات صخره عند المنحدر كجلد قنفذ، إنّ أبسط زلّة قد تلقي به إلى القاع، ثقل الصاك ادو يربكه، لكنه يتشبّث بمهارة قرد، ويواصل تسلّق الجرف والغناء يسيل من لسانه..

على الصخر لا أثر للحياة، فقط القسوة والسماء والماء، يندفع بالحبو إلى أعلى المنتصف، ثم يميل فينحدر قليلا إلى أن يصل مكانه أين يتخذ من تلك البسطة موقعه الذي يشرف على الماء، من هنا سيكون بإمكانه أن يخدع الشرغو فحركة الموج التي يحدثها المد والجزر سوف تصطدم بالصخر فتتحوّل إلى نثار ماء مشتعل أبيض، رغوة زبد تتعانق ثم تنطفئ، وفي ظلام الصخر حيث لا يمكن لشعاع الشمس أن ينفذ، تتربّص هي..

فضّيّة الرأس، يتعانق لونها في تدرّجه نحو الجذع مع البياض، وتزيدها الخطوط الرّمادية الباهتة التي تقطع جسمها عرضيا فتنة اللؤلؤة المندفعة في الماء، باستطاعتها الآن أن تخدعه وهي تحتمي بالظلام وارتطام الموج، لن تمكّنه هذه الفوضى الهادرة من الرؤية وهو عالق هناك في رأس الصخر، عليه أن يستلّ

السـنّارة..

سـحبها إلى آخـر قـدر مـن طولهـا، لـن يرحـم الشرغـو اليـوم، مـن السـخف أن يعـود خـالي الوفـاض، فتلـك منقصـة لا تليـق بخبرتـه في الصيّـد، ومـن العـار أن لا يجـد في لسـانه مـا يسـد رمـق الحكايـة حـين يجمعهـم سـمر المقهـى، سـوف يتطـاوس الرفـاق كعهـده بهـم:

- قدّاه نسمكة صيّدت؟

بماذا يجيب إن كانت الخيبة حليفه؟

- ما كتبش ربي..

الضحكات تملأ المقهى والليل والفضاء..

- الموضع نحس..

التطـيّر هـو ديـن هـؤلاء الصيّاديـن، الشّـماعة التـي يعلّقـون عليهـا خيباتهـم، لكنـه لـن يستسـلم، رغـم الطقـس الهـادئ الـذي لـن يكـون في صالـح شـصّه، فسـوف يحصـل عليهـا.. واحـدة.. اثنتـان.. ثـلاث.. مثـل هـذا القـدر قـد يلهمـه سـمرة فخـر، وبسـمة غـرور تكشـف لهـم عـن تفـرّده في امتـلاك الـسرّ..

- مطواعـة تـأتي، مستسـلمة ترضـخ، تقـتربُ بالرّضـا.. تنتـش الطّعـم، ثـم...

أطعـم الشـصّ لحـم السرديـن، فالشرغـو في وقـت وضـع بيضـه ولـن يتوانـى عـن نهـش مـا يعلـق أمامـه، ثـم راح يرخـي الخيـط مـن

خلال حلقات القصبة مسندًا مقبضها النحاسي إلى ركبتيه، حتى إذا تدلّى أمسكها بكلتا يديه وطوّح بالخيط في الهواء حيث يقوده ثقل الرصاص إلى عمق الماء..

فريسة سهلة على الصخرة هو، وهي تتربّص، في عينيها المفتوحتين الحذر، في جوفها الجوع، بخيشومها تشمّ انتظاره، تشمّ قبضة يده المتأهبّة، بالصبر تدور في الماء، الظلمة والهدير، الموج يخفي مناوراتها، بطول البال يتسكّع في خيالاته:

- اصطدتها عند الجرف؟

- نعم.

يتمطّى الفرح في وجهه، الطفولة أنهار تجري على محيّاه، وهي لن تمنحه ما يتمنّى، دورة أخرى بتسارع مريع، اللحم يسيل بدم ملفت، تندفع بالحيطة، تقترب بالحذر، سوف تلتفّ الآن خلف هذه العوالق، تقترب أكثر.. أكثر.. كالسهم، بصدمة كهرباء تنهش المضغة، فينفجر صوت الجرس عند طرف نهاية القصبة..

كانت أسرع ممّا تخيّل، لم تمنحه فرصة العودة من خيالاته كي يشدّ بقوة ويسحب، خيّل إليه أنها نهشت قطعة من لحمه، خدعته بسرعتها، وعاد الجرس إلى صمته المطبق:

- الموضع نحس..

الموضع يناسبها، حيثُ الظلام والهدير، اندفاع الموج هو ما

يخدمهما معًا.. لكن لِمَ لم تعلق؟..

ضحكوا بملء التهكم، وقال له أحدهم:

- من خيبتك..
- الطّعم..
- اللي خانوه زنودوا يقول بيا السحور

لطم الحجر، وبصق على البحر، الشرغو في الرّبيع يبيض ومن جوعه يلتهم كل شيء.

كان رنين الجرس يعلو ويخفتُ في نوبات قضمها، أسرع من يديه هي، وأمهر من حذر أذنيه، وهو يعلق طُعْمًا في شصّ انتظارها، هناك أعلى البسطة حيث لا تراه..

الشرغو نوع من السمك يعيش قرب الصخور البحرية

الصاك ادو le sac a dos حقيبة الظهر

الرّوشي roche تسمية الصخر باللسان الفرنسي

اللي خانوه زنودوا يقول بيا السحور مثل شعبي يضرب لمن يعلق فشله على أسباب واهية.

العرض

كانس المسرح يقفُ تحت الأضواء، يسند المكنسة إلى خصره، من التجنّي على شعوره أن نقول مثلا: إنّ آخر قدم برحت الرّكح قد خلّفتْ في نفسه بعض الأسى، الأمر من وجهة نظر أيّ شاعر يبدو كذلك، لكن من ذا الذي قال إنّ رؤى الشعراء هي الرؤى التي يجب أن نستكين إليها ونقبلها عن طيب خاطر، الشعراء يزايدون كثيرا على أحاسيس غيرهم، يختلقون أسى يفتح شغف التعاطف مع هذه الوحدة التي أغرقتْ كانس المسرح الذي رفع مكنسته وراح يحدّثها كما لو كانت امرأة...

كانت امرأة من لحم ودم، نعم كانت كذلك رغم المقبض الخشبي الطويل الذي يتهدّل منه هذا العشب اليابس، فالوحدة في المسرح المضاء تخوّل له تصويرها كما يلهمه خياله، ألم يجعل الممثل الذي شهد بروفاته مئات المرات من كرسيه طفلا يخاطبه؟ نعم حدث الأمر أمامه وقد أبكاه المنظر، أبكاه الرّجل وهو يحتضن الكرسيّ كأنه ابنه، أيحقّ لغيره ما لا يحقّ له؟ وما

دام قد حوّل الكرسيّ إلى طفل وأقنع جمهور النظّارة بهذه الخدعة الشنيعة، فما الذي يمنع المكنسة من أن تتحوّل إلى امرأة؟ وهو بلا امرأة أصلا.. يستطيع الآن وقد بقي وحيدًا معلّقًا على الرّكح أن يقدّم دوره الحقيقي، أن يقول نفسه كما يجب دون خوف ودون وجل من الآخرين، هو لا يشبه هؤلاء الممثلين الفشلة الذين يستعينون على إمتاع الجمهور بالضحك أو البكاء أو التأمل في كلماتهم بما يبتدعه لهم المؤلف وما يسوقهم إليه المخرج، لن يستعين بتلاعب في الأضواء ولا بالديكورات ولا الأكسسوارات، ولا بممثل آخر يواجهه، في النهاية أنا وحدي.. يقول..

في النهاية يجب أن أخلق امرأة من مكنسة، وأن تستجيب هذه المكنسة لطموحي، الكثرة تتخيّل أنّ المسرح ـ أيّ مسرح ـ تعمّه الكآبة بمجرّد رحيل ممثليه ونزول ستارته، نعم الكثرة تتخيّل هذا الأمر، ودعني أصارحكم بأنّ الشاعر هو من يختلق هذا الشعور ويلبسه على الحالة، ثم يقنع به غيره، هذا غير حقيقي بالمرّة، هذا الشعور الزّائف يفتعله الشاعر، يرى أنّ المكان يتوحّش بعد العرض، الأمكنة ليست فارغة حتى لو تركناها لنهش الفراغ نفسه، الأمكنة مملوءة بسحر صمتها، بدفء مزاجها العاطفي، بفيوضات ذاكرتها، الأمكنة لا تبرح ذواتها حتى وإن برحناها، هل تعرفين؟ .. رأيتهم وهم ينزلون إلى جمهور النظّارة، يختلطون بهم،

ذلك الشغف النّابت في الأعين تحت الأضواء، الفرح المؤثث بالانبهار الساحر، يتحوّل المسرح إلى خلية نحل، يدبّ الهرج، ينعقد سحاب دخّان سجائرهم، تتلصّص العيون، تفتن، تشهق، شيئا فشيئا يتعرّى المكان من النّاس نظّارة وممثلين، فجأة أجدني وحدي، يدي في يدكِ ونحن نعتلي الرّكح، امرأة شهيّة تذعن ليدي وتسير إلى جواري، ترتقي معي الدرج الواطئ وتنام على صدري إن هي كلّت..

انظري المسرح لم يتغيّر، الكراسي نفسها لم تتغيّر، كل ما أصابها هو غياب وهمهم، الآن بإمكاننا أن نكون وحيث نكون لا مكان للأسى، كل ما كان قبلنا حالة وهمية، النظّارة يدركون أنّ ما يعرض عليهم مجرّد كذب، لن اختلف معك في كونهم مدركين لتلك الأكاذيب التي يعشقونها، المرأة التي بكتْ أثناء العرض حين احتضن الممثل الكرسي على أساس أنه ولده، كانت تعرف أنّ ما يحضنه الممثل كرسيا وليس ولدا، لكنها بكتْ.. في أغلب الأحوال لقد فعلت ذلك لأجل ذكرى، حادثة استدعاها الموقف، ربما تركها خطيبها، ربما هي وحيدة مثلنا تماما، إذ كانت الكراسي إلى جوارها شاغرة، أنتِ تقولين: إنّها حبّذتْ حضور العرض وحيدة، أو أنّ خطيبها من هؤلاء الذين يسخرون من العروض المسرحية، فاعتذر لها بذوق عن

عـدم مرافقتهـا.. أنـا أقـول لـك: هـل يمكـن أن يكـون جلفـا إلى هـذا الحـدّ؟ لا..لا.. يسـتحيل.. ميـلي إلى تصـوّري فهـو أكثـر واقعيـة مـن تخمينـك، أنـتِ ترافقينني إلى العـرض كل ليلـة، لقـد شـهدناه مئـات المـرّات، حفظنـاه عـن ظهـر قلـب، أعـرف غيرتـك عـليّ وأحسّـها كلما زاغ بـصري نحـو الممثلـة المملـوءة البيضـاء، للحـقّ يسـحرني دورهـا، نطقهـا، حركتهـا، دورانهـا كفراشـة، أكثـر مـن مـرّة لعـب الشـيطان بـرأسي وأنـا أتخيّـل عـري جسـدها، مـاذا لـو اقتحمـتُ حجرتهـا وهـي تسـتعدّ لأداء الـدور؟ سرعـان مـا أطـرد الفكـرة مـن رأسي وأنفـض قلبـي مـن رغبتـه، سـوف أصدقـك القـول أكثـر.. ليـس الـورع وخـوفي مـن الله هـو الـذي يحـول بينـي وبـين تلـك الرغبـة المشـتعلة إنـما أنـتِ، غيرتـك عـليّ، حبّـك لي.. ثـم إنّهـا تبـدو فتـاة طائشـة، اقتحـام حجرتهـا بـشيء مـن التظاهـر بالخطـأ سـوف يكلّفنـي عمـلي وفضيحـة تهتـز لهـا جـدران هـذا المسرح، فكّـرتُ في أمـر آخـر بينـي وبـين نفـسي، وقـد خفـتُ سـاعتها أن أطلعـكِ عليـه، مـاذا لـو قدّمـتُ نفـسي كممثـل مـع هـذه الفرقـة؟ تلـك فرصـة تجعلنـي أقتربُ منهـا بمـبرّرات مشروعـة، ثـم طفقـتُ أضحـكُ عـلى نفـسي.. كانـس المسرح ممثـلا؟ في الليلـة السـابقة وبعـد انتهـاء عرضهـم حملتـك بـين يـديّ ورحـتُ أدور بحـركات ملفتـة، إقبـال فإدبـار، تقـدّم فتقهقّـر، يـدي تحـت إبطـك ويـدكِ عـلى كتفـي، أمـا يـدي اليـسرى فقـد كانـت

ملتحمة بيدك في ارتفاع يمنح لحركاتنا شكل شجرة يهز أغصانها نسيم الصباح، رجلك اليسرى تترك متسعا لرجلي، ثم في نوبة أخرى تفسح فيها رجلي متسعا لرجلك وهي تتقدم نحوي، العانة على العانة، الجسد يلامس الجسد، كنت أسمع في خلال ذلك موسيقى شهية، موسيقى تأتي من مكان بعيد في رأسي وتتوزّع في أعصابي، متلاصقان حدّ الشهوة، أنا والممثلة المكتنزة البيضاء، كأنها لم تبرح الرّكح، نسيتكِ فيها، ولقد أجدتُ رقصة الفالس، فوعدتني أن تقترح اسمي على مخرج العمل المسرحي:

- عليه أن يضيف رقصة لهذا العرض، لأجلك فقط..
- سوف أفسد العرض، إنه ليس حقيقيا..

الحقيقي نحن، أنا وأنتِ الآن على هذا الرّكح، ننظّفه من غبار أوهامهم، لنعدّه لكذبة ليلة أخرى...

الفهرس

الإهــداء	5
الظلام	7
ساعي البريد	15
الكرسي	27
الجثّة	33
الرّائحة	41
كعب الحذاء	47
لقـاء في الخريـف	55
أشجار عارية	61
المهمّة	67
ثمن الحياة	75
المحطّـة	83
فشلٌ في كتابة قصة	91
المجهول	99
شتات جثة	105
لحم رخيص	113
الحالم	119
عقدة البحر	125
الطعم	131
العــرض	137